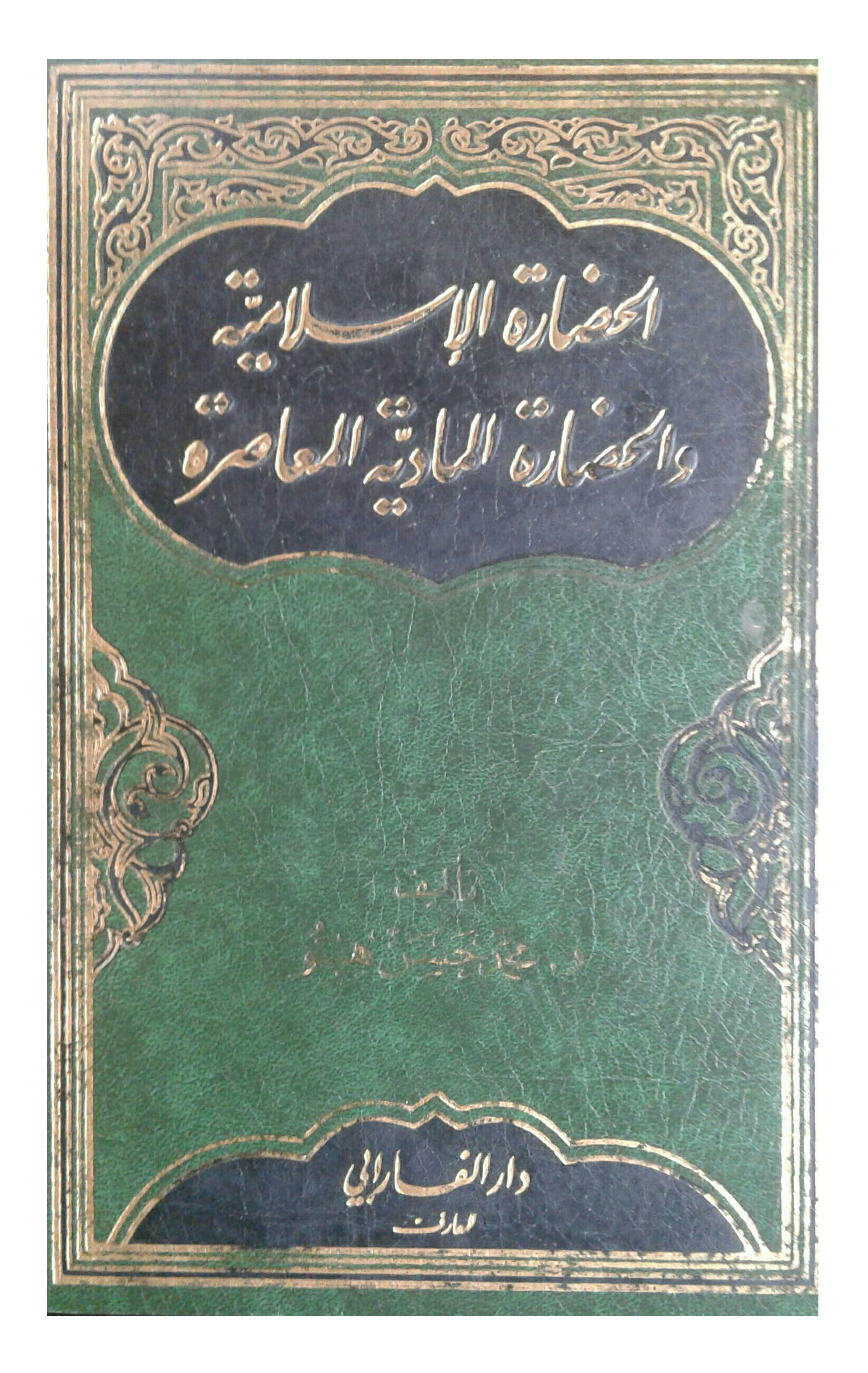

الحضارة الإسلامية
والحضارة المادية المعاصرة
تأليف
د. محمد حسن هيتو
دار الفارابي
للمعارف

الحضارة الإسلاميّة والحضارة المادّيّة المعاصرة

تأليف

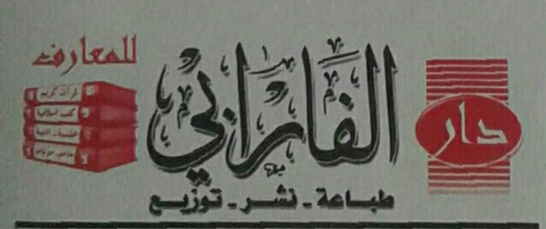
أ.د. محمد حسن هيتو

دار الفارابي

للمعارف

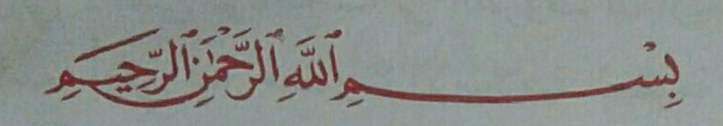
العنوان : الحضارة الإسلامية والحضارة المادية المعاصرة
التأليف : أ.د. محمد حسن هيتو
عدد الصفحات : ١٥٢
القياس : ١٤،٥ × ٢١،٥

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م



أسست عام ١٩٦٧ م
سورية . دمشق . حلبوني . شارع مسلم البارودي .
ص.ب: ٢٣٨٢ هاتف: ٢٢٢٦٧٨٦ فاكس: ٢٤٥٤٩٧٨
www.daralfarabi.com

الوكيل المعتمد في
الإمارات العربية المتحدة
مكتبة دار الفارابي
الشارقة - دوار الساعة
هاتف ٥٦٣١١٣٠ - ٦ - ٠٠٩٧١
darfarab@emirates.net.ae



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وبعد:

فلم تكن هذه الرسالة الصغيرة في الحضارة الإسلامية كتاباً، وإنما كانت محاضرة ألقيتها في مدينة Augsburg الألمانية، في الموسم الثقافي الذي عملته المدينة عام ١٩٩١ لمدة ثلاثة أشهر، من أجل تعريف الألمان بالإسلام في جميع جوانبه، وكانت تلقى فيه محاضرتان في الأسبوع.

وكانت هذه المحاضرة هي الأولى بعد محاضرة افتتاح الموسم، وكان لها صدى واسع في الصحف الألمانية في آوجسبورغ، وكانت قاعة المدينة غاصة بالمثقفين الألمان، وكانت تعليقاتهم عليها في غاية الإعجاب والإيجابية، مما حفزني لأن أزيد فيها، وأتوسع في بعض جوانبها، لتكون هذا الكتيب الصغير.

وبقيت من ذلك الوقت في زوايا النسيان إلى أن شاء الله لها أن تظهر.

وإني لأتمنى لو أتيحت لي الظروف أن أزيد فيها لتكون كتاباً واسعاً أُوَفي فيه حضارتنا الإسلامية العظيمة حقها، والله الموفق لذلك، والهادي إلى سوء السبيل.

الكويت ٢/٢/١٣٣٢هـ

٢٠١١/١/٧م

د. محمد حسن هينو

مقدمة

إني سأتكلم في هذه الرسالة عن موضوع أعتبره في غاية من الأهمية بالنسبة للإنسان المسلم بشكل خاص والإنسان المعاصر بشكل عام، ألا وهو الحضارة الإسلامية العظيمة.

وذلك أن هذه الحضارة العظيمة في كل جوانبها، والتي كانت من أعظم أسس ودعامات الحضارة المادية المعاصرة، قد نسيت أو تنوسيت في هذا العصر، حتى كادت تمحى من الأذهان، ليس عند أعداء هذه الحضارة فقط، بل عند أبناء المسلمين، أمام تيار التغريب الجارف، الذي يجتاح أمتنا في جميع مجالات الحياة منذ عشرات السنين.

إن الإنسان المعاصر، في الشرق والغرب، من المثقفين والعامة، ليعرف الكثير عن كثير من الحضارات الإنسانية التي وجدت على الأرض، من الحضارة الفرعونية، والحضارة الرومانية، والحضارة الفارسية، والهندية، والصينية، واليابانية، واليونانية، ولكنه لا يعرف لا الكثير ولا القليل عن الحضارة الإسلامية التي مدت ظلها على العالم بأسره، لما يزيد عن ثلاثة عشر قرناً، كانت فيها الحضارة السائدة

والرائدة في العالم، وكانت هي الدعامة الأولى للحضارة المادية المعاصرة، وكانت نواتها الحقيقية.

ولقد وَجَدَتْ كل الحضارات التي قامت في العالم ـ مما ذكرناه منها وما لم نذكره ـ وجدت من يبحث عنها، ويبذل كل ما في وسعه وطاقته لإظهارها، ويفاخر في كل الميادين بها، بل صارت بعض الحضارات دعوة قومية يدعى الناس لإحيائها، والاعتزاز بالانتماء إليها، والتفاخر بتاريخها وروادها، لا للسير على هداها، فليست لها قوانين ترسم للإنسان طريق الهداية، أو تبين سبل السعادة، ولكن للقضاء على معالم الحضارة الإسلامية، فليس المهم أن تعود تلك الحضارة إلى الحياة، ولكن المهم أن يحل بريقها محل الحضارة الإسلامية في الأذهان.

وأنا لا أريد بهذا الكلام أن أغفل تلك الحضارات التي ذكرتها، وغيرها مما لم أذكره، وإنما أريد أن أبين أن حضارتنا الإسلامية حضارة كتلك الحضارات، فلا يجوز لباحث أن يغفلها، أو يعرض عنها، بل هي من أعظم الحضارات الإنسانية التي قامت في تاريخ الإنسان القديم والمعاصر، كما ستراه في هذه الرسالة إن شاء الله.

وفي نفس الوقت لا أنكر أن كثيراً من مؤرخي العالم ـ في الشرق والغرب ـ قد كتبوا عن الحضارة الإسلامية،

وأبرزوا دورها في الحضارة الإنسانية المعاصرة، وبينوا مكانتها بين الحضارات، وأنها أرقاها وأكملها، وأنها نواة الحضارة المادية المعاصرة.

وإني لأشكر لهم صنيعهم، إذ كتبوا متجردين عن العصبية، والهوى، وأتمنى لكل من يكتب في أي أمة من الأمم، وفي كل علم من العلوم، أن يكتب متجرداً عن العاطفة، والعصبية، والهوى، حتى يتمكن من عرض الحقائق العلمية على ما هي عليه، وإلا يكون مزيفاً ومزوراً.

يقول ديورانت في كتابه «قصة الحضارة»: إن الحضارة لا تموت، ولكنها تهاجر من بلد إلى بلد، فهي تغير مسكنها وملبسها، ولكنها تظل حية. وموت أحد الحضارات، كموت أحد الأفراد، يفسح المكان لنشأة حضارة أخرى.

والسؤال الذي أريد أن أطرحه هو: أين كانت الحضارة، بعد اضمحلال الحضارات القديمة، أيام سلطان الدولة الإسلامية، الذي امتد على معظم بقاع الأرض، لما يزيد عن عشرة قرون، وقبل الثورة العلمية الحديثة على قول ديورانت السابق؟

والجواب، أنها كانت الحضارة الإسلامية العظيمة، التي تبوأت عرش الحضارات، ورسمت للإنسانية بمثاليتها أجمل الصور، وسمت بالعلم ورواده إلى ذروة المجد.

وفي نفس الوقت لا أريد أن أقول إن أمتنا الإسلامية اليوم هي الأمة الإسلامية التي أتكلم على حضارتها التي كانت بالأمس.

فأمتنا اليوم أمة مستعبدة، مغلوبة على أمرها، مقاليدها بيد عدوها، وهي بتخلفها الحضاري جديرة بما يسمونها به مجازاً من أنها العالم الثالث.

ولكنها رغم تراجعها الحضاري، وضعفها المادي، مازال فيها من يحفظ تاريخها، ويدعوها إلى أمجادها، ويكشف لها عن طريق عزتها وكرامتها، ويستنهض من حضيض الجهل إلى بقاع المعرفة همتها.

عسى أن تصحو من هذا الذهول الذي أصابها، وتستيقظ من السبات العميق الذي خدرها، لتعود ثانية إلى مكانتها في قيادة البشرية، وريادتها للحضارة الإنسانية، في ظل الهداية السماوية، وعصمتها الربانية.

تعريف الحضارة:

قبل الخوض في الكلام عن الحضارة الإسلامية أو غيرها من الحضارات، يجب علينا أن نعرف ما تعنيه كلمة الحضارة.

وقد عرفها علماء الاجتماع، بأنها الحالة الراقية التي تكون عليها الأمم تحت تأثير العلوم، والصنائع، والفنون، والأخلاق، والشعارات العامة لتلك الأمة.

ولم يشيروا إلى المعتقدات مباشرة وإنما ذكروا بدلاً عنها كلمة الأخلاق، والشعارات العامة، وهي غالباً ما تكون مبنية على المعتقدات، وهذا ما يدل عليه واقع الحياة الإنسانية قديماً وحديثاً، فمعتقد الإنسان هو العنصر الأساسي والأول الذي يتحكم في أخلاقه، وشعاراته، وصنائعه، وفنونه، بل علومه.

ولذلك فإذا أردنا أن نعرف الحضارة فإننا نقول: «إنها الحالة الراقية التي تكون عليها الأمم تحت تأثير المعتقدات، والعلوم، والصنائع، والفنون، والآداب العامة».

فالمعتقدات هي التي توجه سياسة الأمة، واقتصادها، واجتماعها، وسلمها، وحربها، وصناعتها، وفنها، وأدبها، وأساليب عيشها، وكل جانب من جوانب حياتها، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

ما نريد بيانه في هذه الرسالة:

ونحن، في مثل هذه الرسالة الصغيرة لن نستطيع أن نوفي الحضارة الإسلامية حقها لضيق الوقت فيها.

فالمرء مهما أوتي من قدرة على التعبير، وسمو في أساليب الإنشاء، وبلاغة في الإيجاز والاختصار، لن يستطيع أي يجمل حضارة أمة نشرت ظلال سلطانها على العالم بأسره خلال ما يزيد عن اثني عشر قرناً، في صفحات يسيرة من خلال كتيب صغير.

إلا أننا نستطيع رغم ذلك أن نرسم صورة إجمالية عما نريد أن يُعْرف من الغاية التي نرمي إليها، وهذا ما نريد الوصول إليه.

ولذلك سأقتصر في كلامي على بعض الصور التي آمل من خلالها أن يعرف الناس أي حضارة تلك الحضارة التي أفلت وغاب نجمها في جانبين من جوانبها فقط، وهما: الجانب الاجتماعي، والجانب العلمي.

حضارتنا الإسلامية قائمة على الإيمان بالله:

والحضارة الإسلامية وإن كانت قد صنعها الإنسان، إلا أنها قائمة على الإيمان بالله، خالق الكون والحياة، والعالم بكل شيء، فهو الذي خلق الإنسان، وسخر له هذا الكون ليعمره، وأوصى إليه عن طريق الأنبياء والرسل الدستور المعصوم السليم، الذي يرسم له المنهج المطرد القويم، في

إعمار هذا الكون، وإقامة الحياة المثالية التي يطمح الإنسان لها، ويبذل كل ما في وسعه من أجل إقامتها.

فالحضارة الإسلامية قائمة على القانون المعصوم عن الخطأ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم عليم.

ولذلك استطاعت أن تضرب أعظم الأمثلة في سرعة نموها وازدهارها، وتطورها وانتشارها، فقطعت في قرن واحد من طريق الارتقاء في سلم الحضارة ما عجزت عنه البشرية خلال عشرات القرون.

والحضارة الإسلامية ليست حضارة مادية فقط، تعنى بالجسد، والآلة، ومظاهر الحياة، وتهمل الجوانب الأخرى التي تحتاجها الحياة، من السموّ في الروح، والفضيلة في الخلق، والاستقامة في المعاملة، والترابط في الأسرة، والتراحم في العلاقة الإنسانية، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإنزال كل امرئ منزلته.

فهي كما كانت تحث على العلم والمعرفة، كانت تحث على السمو الروحي، ليكون هناك توازن بين الروح والجسد، فلا يطغى أحدهما على الآخر، مما يؤدي في النهاية إلى الشقاء والاضطراب.

فالإنسان ليس مادة فقط، وإنما هو روح ومادة، وطريق سعادته أن يرتقي بهما جميعا، وإلا فإن الارتقاء بأحدهما وإهمال الآخر لابد أن يؤدي يوماً ما إلى نقيض المراد، وهو ما تجني ثمرته اليوم المجتمعاتُ التي ارتقت باحتياجات الجسد، وأهملت متطلبات الروح.

ولذلك عنيت حضارتنا بتهذيب النفس، والرقي في الخلق، والاهتمام بالتربية المثالية، وإقامة علاقات الود، والتراحم، والاحترام، بين أبناء الأسرة والمجتمع.

وكان شعارُها الذي ملأ كيان أبنائها بعد الإيمان بالله «الأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، والنهي عن الفحشاء، والمنكر، والبغي»

فكانت حضارة الصدق والأمانة، والوفاء، والإخلاص، والحلم والصبر، والجود والكرم، والصفاء والحياء، والاتحاد والإخاء، والعزة والكرامة، والتواضع والرحمة، والأخذ على يد الظالم، ونصرة المظلوم، والبر بالآباء، والصلة للأرحام، والإحسان إلى المستضعفين، وغير ذلك من أعظم شعارات الرقي عند الأمم، ومما لا سبيل إلى حصره واستقصائه، مما سنعرف الكثير عنه فيما يأتي إن شاء الله.

❊ ❊ ❊

الحضارة الإسلامية في جانبها الاجتماعي

إن الحضارة المعاصرة اليوم تفخر بأنها ارتقت بمجتمعاتها إلى ذروة الحضارة الاجتماعية، التي تتمثل في حرية الإنسان والمساواة بينه وبين غيره من أبناء جنسه، وضمان حقوقه وأمنه، وتأمين حاضره ومستقبله.

ولاشك أن بعض المجتمعات المعاصرة في بعض الدول الأوروبية والأميركية تتمتع بكثير من هذه المزايا، على ما فيها من الأخطاء والتناقضات، التي سنضع أيدينا على كثير منها عند مقارنتها بحضارتنا الإسلامية العظيمة.

الحضارة الإسلامية وحقوق الإنسان:

في العاشر من ديسمبر سنة ١٩٤٨ أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والذي ينص على أن الناس يولدون أحراراً، ويموتون أحراراً، وهم متساوون في الحريات والحقوق.

وهذا يعني أن الإنسان عند الأمم التي احتفلت بهذا الإعلان كان فاقداً لمعانيه، وفقدان معانيه يظهر في مجالات شتى، يظهر في العبد الرقيق أمام السيد المستبد، ويظهر في الفقير المعدم أمام الغني البطر، وفي الفئة الحاكمة المستبدة أمام الفئة المحكومة المقهورة، وقد يظهر في عرق أمام عرق، ولون أمام لون، وقوم أمام قوم، ويجمع كل هذه الصور شعار واحد ألا وهو استبداد القوة فيمن ملكها،.وذلة الضعف فيمن فقدها.

الأمم غير الإسلامية قبل هذا الإعلان:

إذاً فقبل هذا الإعلان ما كان الإنسان يعرف في كثير من المجتمعات حقوق الإنسان، بل كان يطبق شريعة الغابن وقانون القوة، وطبيعة الاستبداد، وإن الدارس لتاريخ الأمم والشعوب، والغزوات والحروب، ليجد في ثناياه ما يقشعر منه الجلد، ويضطرب له الفؤاد، من الظلم والاضطهاد، والعتو والعناد، مما كان يمارس بقانون القوة في العلاقة بين القوي والضعيف.

صور من مآسي الحضارة المادية:

فقد أبيدت أمم كاملة لا في حالة اعتدائها على غيرها، بل بسبب دفاعها عن نفسها، فلم يكن لها من ذنب إلا أنها إلا أنها قامت بواجب الدفاع عن وطنها، أمام معتد مغير،

وهذا يعني أن الإنسان عند الأمم التي احتفلت بهذا الإعلان كان فاقداً لمعانيه، وفقدان معانيه يظهر في مجالات شتى، يظهر في العبد الرقيق أمام السيد المستبد، ويظهر في الفقير المعدم أمام الغني البطر، وفي الفئة الحاكمة المستبدة أمام الفئة المحكومة المقهورة، وقد يظهر في عرق أمام عرق، ولون أمام لون، وقوم أمام قوم، ويجمع كل هذه الصور شعار واحد ألا وهو استبداد القوة فيمن ملكها، وذلة الضعف فيمن فقدها.

الأمم غير الإسلامية قبل هذا الإعلان:

إذاً فقبل هذا الإعلان ما كان الإنسان يعرف في كثير من المجتمعات حقوق الإنسان، بل كان يطبق شريعة الغابن وقانون القوة، وطبيعة الاستبداد، وإن الدارس لتاريخ الأمم والشعوب، والغزوات والحروب، ليجد في ثناياه ما يقشعر منه الجلد، ويضطرب له الفؤاد، من الظلم والاضطهاد، والعتو والعناد، مما كان يمارس بقانون القوة في العلاقة بين القوي والضعيف.

صور من مآسي الحضارة المادية:

فقد أبيدت أمم كاملة لا في حالة اعتدائها على غيرها، بل بسبب دفاعها عن نفسها، فلم يكن لها من ذنب إلا أنها إلا أنها قامت بواجب الدفاع عن وطنها، أمام معتد مغير،

هل طبقت الحضارة المادية المعاصرة حقوق الإنسان؟

إذا ألقينا نظرة سريعة على تاريخهم بعد هذا الإعلان لوجدناه أسوأ مما كان، فالدول المستبدة القوية مازالت إلى يومنا هذا تسيم الأمم الضعيفة في كل بقعة من بقاع الأرض الخسف والهوان، تنهب ثرواتها، وتسلب خيراتها، وتشرد أبناءها، وتضطهد أبرارها، وتقمع كل فرد أو فكرة تنادي بالحرية، أو تطالب بالمساواة.

التمييز العنصري مازال في كثير من بقاع الأرض التي تقع تحت سلطانها قائماً. والترتيب الطبقي ظاهرةً فاشيةً في كل مجتمع من مجتمعاتها، والنزعة العنصرية قائمةً في أبنائها، والعداء لمن خالف عقيدتها أو منهجها مازال عقيدة تتدفق دماء في شرايين أتباعها.

ومن ذا الذي يجهل في العالم ما يحمله الأبيض الغربي في نفسه للأسود الزنجي، ولما ينس بعد التمييز العنصري في جنوب أفريقيا، وما فعله الأبيض بالأسود في كينيا.

إن العالم لم ينس ولن ينسى الحقد الصليبي على المسلمين لما دخل الصليبيون القدس، إذ قتلوا ما يزيد عن سبعين ألف إنسان، مع أنهم لم يكونوا من المقاتلين، ولكن كان ذنبهم أعظم في نظر الحقد الصليبي إذ كانوا من المسلمين.

وأرادوا أن يؤكدوا هذا في العصر الحديث بما فعلوه بالمسلمين في زنجبار، ودول البلقان، والمقاطعات الإسلامية في تركستان وشمال آسيا، بل بما فعلوه في هذه الأيام في الشيشان، والبوسنة، والهرسك، وكوسوفو، وفلسطين، وأفغانستان، وغيرها من ديار الإسلام ليؤكدوا لكل ذي عقل أن الحضارة التي يحملونها إنما هي حضارة الأحقاد، والولوغ في الدماء، والإبادة، والتنكيل والتشريد والاضطهاد لكل من يخالف عقيدة حاملها أو منهجه.

وهل كانت هكذا حضارتنا الإسلامية العظيمة؟

الحضارة الإسلامية وحقوق الإنسان:

لقد فخرت الجمعية العامة للأمم المتحدة أنها وقعت عام ١٩٤٨ على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

ولقد عرفنا فيما سبق أن الإعلان لم يكن سوى وثيقة تبرزها القوة المستبدة بالعالم حينما تدعو مصالحها لإبرازها، وتتعامى عنها حينما تعامل الشعوب والأمم التي لا تدين بمبادئها.

وهنا تظهر عظمة الحضارة الإسلامية التي بهرت العالم بمبادئها، وأذهلتهم حينما طبقت تلك المبادئ بحذافيرها.

المساواة بين الناس في الإسلام:

لقد نزلت آيات القرآن لتقضي على التمييز العنصري، والترتيب الطبقي، والتفاخر بالحسب والنسب، فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾

[الحجرات: ١٣].

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح».

ونادى ابنته وآله ينذرهم الاعتماد على أنسابهم، ويحضهم على المسارعة إلى مرضاة الله بأعمالهم فقال: «يا فاطمة بنت محمد اعملي فلن يغني عنك أبوك من الله شيئاً، يا آل عبد المطلب اعملوا فلن يغني عنكم ابن أخيكم من الله شيئاً لا يأتي الناس يوم القيامة بأعمالهم وتأتون بأنسابكم، من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه».

سادت الحضارة الإسلامية بين أبناء المسلمين جميعاً فلا يفضل أحد منهم أحداً بلون، أو مال، أو ملك، أو نسب، وإنما التفاضل بما يقدم المرء من صالح العمل.

صور من المساواة بين الناس في الحضارة الإسلامية:

روى البخاري ومسلم عن المعرور بن سويد قال: مررنا بأبي ذر بالربذة وعليه برد، وعلى غلامه مثله، فقلنا: يا أبا ذر لو جمعت بينهما كانت حلة، فقالت أبو ذر: كان بيني وبين رجل من إخواني كلام، وكانت أمه أعجمية، فعيرته بأمه، فشكاني إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فلقيت النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «يا أبا ذر، إنك امرؤ فيك جاهلية، قلت: يا رسول الله: من سب الرجال سبوا أباه وأمه، قال: يا أبا ذر، إنك امرؤ فيك جاهلية، هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتوهم فأعينوهم».

وفي رواية: أنه صلى الله عليه وسلم قال له: «إنك امرؤ فيك جاهلية» قال أبو ذر: على حال ساعتي من الكبر؟ قال: «نعم».

وأبو ذر عربي أصيل من غفار، والذي سابّه كان عبداً رقيقاً، وفي بعض الروايات أنه بلال الحبشي.

ولكن الإسلام الذي لا يعرف العنصرية، جعل أبا ذر يأسى على ما بدر منه، ويعتذر للحبشي عنه.

وفي بعض الروايات أنه طلب منه أن يطأ على رأسه، مبالغة في التوبة والندم إلا أن الحبشي أبى، واكتفى بانتصار

رسول الله صلى الله عليه وسلم له، واعتذار أبي ذر منه، وصار من خلق أبي ذر أن يساوي بينه وبين رقيقه فيلبس برداً، ويلبس رقيقه برداً.

٢- وفي الصحيح أيضاً عن معاوية بن سويد قال: لطمتُ مولى لنا، فهربت، ثم جئت قبيل الظهر، فصليت خلف أبي، فدعاه ودعاني، ثم قال للمولى امتثل - أي انتصف منه - فعفا المولى عني، ثم قال معاوية: كنا بني مُقَرِّن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لنا إلاَّ خادمة واحدة، فلطمها أحدنا، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «أعتقوها».

ومعاوية بن سويد عربي أصيل، والملطوم أمة رقيقة عندهم، ولكن الإسلام سوى بالعدل بينهما، وأبى الظلم لهما، وجعل الرقيق - كهذا العبد الضعيف - يتمكن من القوي كمعاوية بن سويد ويجعل له الحق في الانتصاف منه، وكل منهما في غاية الرضى والسرور، إذ أقام شريعة الله في العدل، وأظهرها في أرقى مظاهر الحضارة التي تتغنى بها الإنسانية.

٣ - وفي الصحيح عن أبي مسعود الأنصاري قال: كنت أضرب غلاماً لي، فسمعت من خلفي صوتاً: «اعلم أبا مسعود، الله أقدر عليك منك عليه، فالتفت فإذا هو رسول

الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله، هو حر لوجه الله، فقال: «أما لو لم تفعل للفحتك النار».

أترى ماذا يقول أدعياء الحضارة بعد أربعة عشر قرناً على هذه الحضارة الإنسانية التي تفوق كل ضروب الخيال.

أهكذا يعامل أدعياء الحضارة المادية المعاصرة ـ لا أقول رقيقهم أيام كان الرقيق ـ ولكن الشعوب التي استعمروها، أو استبدوا بطغيانهم المادي بمقادير أهلها..

أدع الجواب لكل ذي سمع وبصر، فالجواب يندى له جبين الإنسانية التي تتطلع إلى الحرية الحقيقية، والتي لم تجدها إلا في ظلال الحضارة الإسلامية العظيمة.

وليس هذا فقط فتاريخ حضارتنا مليء بما لا نهاية له من صور هذه الحضارة في جانبها الإنساني والاجتماعي.

٤ ـ فهاهو قيس بن مطاطيه ـ وكان منافقاً ـ يأتي إلى حلقة فيها بعض الضعفاء من المسلمين كسلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي، وكان قيس يريد الفتنة، فقال: قد قام الأوس والخزرج بنصرة هذا الرجل، يعني: محمداً صلى الله عليه وسلم، وهم من هم في أقوامهم، فما بال هؤلاء، يريد: المستضعفين من سلمان، وصهيب، وبلال، فقام إليه معاذ بن جبل، فأخذ بتلابيبه، ومضى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره بما قال، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم

يجر رداءه، حتى أتى المسجد، ثم نودي: الصلاة جامعة، ثم قام فخطب في الناس فقال: «يا أيها الناس، إن الرب واحد، والأب واحد، والدين واحد».

أي فالناس سواسية، لا فضل لأحد على أحد إلاَّ بالتقوى والعمل الصالح.

٥ـ وسرقت امرأة مخزومية، وقامت عليها البنية بسرقتها، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقيم الحد عليها بقطع يدها، واهتمت قريش، لذلك وأرسلوا أسامة، حِبَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلمه في شأنها، عسى أن يخفف عنها، فغضب رسول صلى الله عليه وسلم، وقال: أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة؟! «وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

٦ ـ وتسابق أحد الأقباط مع ابن فاتح مصر عمرو بن العاص، فسبق القبطي ابن قائد مصر وحاكمها، فما كان من ابن عمرو بن العاص إلا أن ضرب القبطي، وقال له: أتسبقني وأنا ابن الأكرمين؟ وكان القبطي من عامة الناس، ماذا يخطر ببال أي إنسان لو حدث له مثل هذا قبل أن تعلم جمعية الأمم مبدأ حقوق الإنسان، وبعده، وفي أي دولة من دول العالم الذي يسمي نفسه بالمتحضر؟

إن أول ما يخطر ببال الإنسان في مثل هذه الحالة أن يتوارى المضروب، ولو كان مظلوماً، خشية من بأس الحاكم الذي لا ينازعه في حكمه أحد، وخشية من انتقامه بعد ضربه.

ولكن هذا لا يمكن أن يكون في ظلال الحضارة الإسلامية العظيمة، التي ترجمت مبادئها التي تنادي بها إلى واقع عملي ينعم به كل من عاش على أرضها ولو كان غير مسلم.

ورفع القبطي أمره إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في المدينة المنورة، إذ كان قد علم أن أمير هذه الأمة لا يمكن أن يسمح لمثل هذا الظلم أن يقع وهو يقودها بكتاب الله، وسنة رسوله، ليرسم أعظم صور العدالة التي عرفها البشر.

فما كان من عمر إلا أن استدعى عمرو بن العاص من مصر مع ابنه، وقال له: إنك فتحت مصر باسم الإسلام الذي حملته إلى أهلها، ووليت أمرهم لتقيم العدل بينهم «فمتى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟!».

ثم طلب من القبطي أن يقوم ويضرب ابن عمرو بن العاص قصاصاً، لأنه كان قد ضربه، فقام القبطي وهو لا يصدق ما يرى، وانتصف لنفسه من ابن الأكرمين، فضربه كما كان قد ضُرِبَ من قِبَلِه.

لقد كان أولى بجمعية الأمم حينما وقعت على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان أن تذكر فيه قول عمر الخالد: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرار» ليكون مرشد البشرية الحائرة إلى الحضارة التي عرفت هذا الميثاق قبل ثلاثة عشر قرناً من معرفتها إياه.

وماذا يقول أدعياء الحضارة المادية المعاصرة عن مثل هذه الصورة الحضارية التي بهرت بسموها كل داعية إلى الحضارة؟!

الجواب على هذا: يجده كل قارئ للتاريخ عند السود في أفريقيا، والملونين في أمريكا، والشعوب المستضعفة التي غزتها جيوش الأمم التي تدعي الحضارة في أي بقعة من بقاع العالم.

سلو التاريخ عما عملته الجيوش الإفرنسية في الجزائر والشام.

سلو التاريخ عما عملته الجيوش الإيطالية في ليبيا.

سلو التاريخ عما عملته الجيوش الإنجليزية في مصر.

سلو التاريخ عما عملته الجيوش الهولندية في إندونيسيا.

سلو التاريخ عما عملته الجيوش الهتلرية في أوروبا.

سلو التاريخ عما عملته الجيوش الروسية في البلاد التي استعمرتها في آسيا وأوروبا.

وعند ذلك ستجدون الجواب الصريح، وهو أنها كانت تحمل لتلك الدول التي دخلتها ودحرتها، وأبادت شعوبها وأممها، كانت تحمل لها الحرية والعدالة والكرامة الإنسانية، والمساواة..؟!!

وفي كثير من الحالات يكون الصمت هو الجواب، لاسيما إذا كان المدعي ممن خلع عنه ثوب الحياء.

صور من ارتقاء الموالي بالعلم إلى ما فوق السادة:

١ـ لقد أمر عبد الملك بن مروان مناديه أن ينادي في الناس في موسم الحج «ألا لا يفتين في الموسم إلا عطاء بن أبي رباح، إمام أهل مكة، وعالمهم ومفتيهم».

وهل تعرفون من هو عطاء بن أبي رباح...؟

إنه مولى لبني فِهْر أو الجُمح، فلم يكن بالعربي الأصيل، وإنما كان من الموالي، فكان أبوه أسلم مولى حبيبة بنت ميسرة بن أبي خُثَيم.

ولكن الإسلام الذي أبى العنصرية في كل معنى من معانيها ارتقى بالبشرية إلى أن صير الموالي رموزاً من رموز هذا الدين، بهم يقتدي الناس، وعلى خطاهم يسيرون.

وكان عطاء بن أبي رباح إلى جانب أنه مولى: كان أعور، أشل، أفطس، أعرج، أسود، ثم عمي بعد، إلا أن الحضارة الإسلامية جعلت منه العظيم الذي تلتف حوله الأمة بعقولها وقلوبها، ويصغي له الملوك بسلطانهم وعظمتهم، يتواضعون لهيبته، ويذعنون لأمره، على عوره، وشلله، وعرجه، وسواده، وإلى هذا أنه مولى.

قال الأصمعي: دخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك بن مروان وهو جالس على سريره، وحواليه الأشراف من كل بطن، وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته، فلما بصر عبد الملك بعطاء؛ قام إليه، فسلم عليه، وأجلسه معه على السرير، وقعد بين يديه، وقال له: يا أبا محمد حاجتك؟

فقال عطاء: يا أمير المؤمنين اتق الله في حرم الله وحرم رسوله، فتعاهده بالعمارة.

واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار، فإنك بهم جلست هذا المجلس.

واتق الله في أهل الثغور، فإنه حصن المسلمين، وتفقد أمور المسلمين، فإنك وحدك المسؤول عنهم.

واتق الله فيمن على بابك، فلا تغفل عنهم، ولا تغلق دونهم بابك.

فقال له عبد الملك: أفعل.

ثم نهض عطاء وقام، وقبض عليه عبد الملك فقال: يا أبا محمد، إنما سألتنا حوائج غيرك، وقد قضيناها، فما هي حاجتك؟

فقال عطاء: مالي إلى مخلوق حاجة، ثم خرج، فقال عبد الملك: هذا وأبيك الشرف، هذا وأبيك السؤدد اهـ.

وهذه هي حضارتنا التي أذهلت العالم، إذ جعلت رجلاً كعبد الملك بن مروان، الذي يحكم معظم بقاع العالم، يجلس بين يدي عطاء كالطفل الصغير، يتشرف به، ويسمع نصحه، ويسارع في تلبية أمره.

وهذه الصورة من صور حضارتنا ليست خاصة بعطاء بن أبي رباح، وإنما هي قانون الإسلام العظيم، في الارتفاق بالإنسان بدينه وعلمه، دون نظر إلى جنسه، أو لونه، أو أصوله، فشعارنا، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح.

٢ ـ فهاهو طاوس بن كيسان وهو من الموالي، يسود أهل اليمن، كما ساد عطاء ابن أبي رباح أهل مكة.

٣ ـ وهاهو يزيد بن أبي حبيب، وهو من الموالي يسود أهل مصر.

٤ ـ وهاهو مكحول وهو عبد نوبي، مولى لامرأة من هذيل، يسود أهل الشام.

٥ـ وهاهو ميمون بن مهران، مولى لامرأة من الكوفة من بني نصر، أعتقته، فجد واجتهد حتى ساد أهل الجزيرة.

٦ ـ وهاهو الضحاك بن مزاحم يسود ـ وهو من الموالي أهل خراسان.

٧ ـ وإبراهيم النخعي ـ وهو من الموالي ـ يسود أهل الكوفة.

٨ ـ والحسن البصري ـ وهو من الموالي ـ يسود أهل البصرة، بل تسود سيرته العالم الإسلامي إلى اليوم، كما سادت سيرة من ذكرنا قبله.

وهذا الذي ذكرناه كله غيض من فيض، وقليل من كثير، من الصور التي لا نهاية لها في حضارتنا الإسلامية العظيمة.

قال عبد الملك بن مروان للزهري: بم ساد هؤلاء؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنما هو دين، من حفظه ساد، ومن ضيعه سقط، فقال له عبد الملك، ينبغي أن يسودوا.

وهذه السيادة ليست سيادة تفرضها قوة البطش والإرهاب على الناس للصعاليك الذين يحتمون بهذه القوة.

إنما هي سيادة الحب والاحترام، والتبجيل والإكرام، من أمة ارتقى بها دينها إلى ذروة الحضارة الإنسانية، حتى صار الملوك يتمنون بعض المكانة التي تمتع بها أولئك الموالي وغيرهم في قلوب المسلمين.

وحسبنا فخراً بحضارتنا أن كثيراً من الناس ارتقى حينما علم الناس أنه تخلق ببعض خلق من ذكرنا من الموالي، أو استطاع أن يسير شيئاً من سيرتهم.

صورة من مساواة الحكام بالمحكومين:

١ـ المساواة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه :

حينما ولي الخليفة الأول أبو بكر الصديق أمر المسلمين خطب المسلمين خطبة الخلافة ليبين للناس منهجه في حكمه حتى يكون كل مسلم على بينة من أمره، فقال :

«يا أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني.

والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله».

وحكم، فكان كما قال.

٢ ـ المساواة والعدالة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

وجاء بعده أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صاحب الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في كلمته المشهورة التي ازدان بها تاريخ البشرية «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟» والتي احتفل أدعياء الحضارة بمعرفتها صورة وشكلاً، لا حقيقة وتطبيقاً، بعد ألف وثلاثمائة عام من قول عمرَ لها، وإقامة خلافته وحكمه على أساسها.

أ ـ حث عمر الناس على تقويمه إن انحرف :

وسأل عمر الناس ليمتحن استقامتهم، ويعرف مقدار ما سيناله من عونهم فقال، ماذا تقولون إذا رأيتم فيّ اعوجاجا؟

فقالوا : قومناك بحد سيوفنا، فتهلل وجه أمير المؤمنين فرحاً واستبشاراً، إذ وجد في الأمة التي سيتولى أمرها الرجال الذين يقومونه إذا انحرف، ويعينونه إذا استقام، فقال: الحمد لله الذي جعل في أمة رسول الله من يقول لأميرها: إذا وجدنا فيك اعوجاجاً قومناك بحد سيوفنا.

وهل كان هذا الكلام شعاراً أجوف يتشدق به قائله، ليلفت نظر الناس إليه، ثم لا يوجد له أي أثر في الواقع، أم كان حقيقة الأمير والمأمور؟

ب ـ عمر وثوبه السابغ دون ثياب الناس :

سندع الجواب للتاريخ يتكلم، فيقول : جاءت إلى بيت المال برود من اليمن، فوزعها عمر على المستحقين من أهل المدينة، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنال كلاً منهم ثوباً يبلغ ركبته، ولا يصل لقصره إلى قدمه، وكان واحداً ممن أخذ ثوباً.

وجاء يوم الجمعة، وجاء عمر يخطب الناس وهو أميرهم، وقد ارتدى ثوباً سابغاً بلغ قدمه، مما لفت نظر الناس إليه، إذ كان ثوبهم قصيراً، وثوبه طويلاً، وهذا يعني أنه آثر نفسه بثوب طويل دون أصحابه.

وبدأ عمر خطبته بأن حث الناس على السمع والطاعة، فقام إليه رجل من المسجد وقال له : لا سمع ولا طاعة، فقال عمرُ: لم؟ قال الرجل: حدثنا عن برد اليمن.

وهنا أدرك عمر سر الاعتراض، ولم تأخذه العزة بالإثم ـ كما تأخذ الطواغيت إن هم اعترض عليهم، ولم يذل الناس ويتواضعوا بين أيديهم ـ بل تهلل وجهه ثانية، إذ عرف ما قاله له الناس يوماً: إن وجدنا فيك اعوجاجاً قومناك بحد سيوفنا، عرف أن ما قالوه لم يكن شعاراً أجوف لا حقيقة له، وإنما هو حقيقة الأمة التي زاد فخره بقيادتها: فالتفت إلى ابنه عبد الله بن عمر، وقال له: قم يا عبد الله فحدثهم عن برود اليمن.

فقام عبد الله وكان أيضاً ممن ناله برد من تلك البرود فقال: إن أبي رجل طويل من الناس، وإن الثوب الذي ناله لم يبلغ أن ستر عورته، فأعطيته بردي، فضمه إلى برده، فكان سابغاً كما ترون.

وعند ذلك تهلل وجه السائل ومن معه في المسجد، وقال له: الآن نسمع ونطيع.

وهنا تقف الأقلام عن التعليق، ويغيب السامع عن الوجود، بعد أن ثمل بكأس هذه الحقيقة التي جاوزت آفاق الخيال والأحلام، ويذهل التاريخ الذي سودت صحائفه سير الطواغيت، والمستبدين، ممن لم يصلوا إلى معشار ما وصل إليه عمر من الملك والسلطان.

وهل تعرفون عمر الذي نتحدث عنه؟ إنه الرجل الذي امتد سلطانه إلى بلاد الروم والفرس، واقتلع كسرى وقيصر عن عرشيهما وأقام في الشام والعراق أسس الدولة التي حكمت العالم لقرون طويلة تمتع العالم تحت راياتها بنعيم أعظم حضارة إنسانية.

وهل تعرفون عمر هذا..؟ إنه الخليفة العادل الذي امتد سلطانه إلى حيث ذكرنا وهو يرتدي ثوباً عليه أربع عشرة رقعة.

إنه الرجل الذي كان ينام على الحصير، ويأتدم الزيت، ويسكن قصراً يتكون من غرفة واحدة.

وهو الذي قال فيه رسول عدوه حينما رآه نائماً على الحصير في المسجد:

«حكمت، فعدلت، فأمنت، فمنت يا عمر»

وهو الذي تغنى به الشعر وحيكت عن عدله الأساطير:

يا من رأى عمراً تكسوه بردته
والزيت أدم له، والكوخ مأواه
يهتز كسرى على كرسيه فرقاً
من بأسه وملوك الروم تخشاه

ج ـ عمر وتفقده للرعية:

هل عرفتم في تاريخ الحضارة المادية المعاصرة حاكماً، يأكل دون ما يأكل شعبه؟

ويلبس دون ما يلبس؟

يسهر ليله كله يتجسس أخبار الرعية، لا ليضطهدم في السجون، ولا لينكل بهم لأنهم يعارضونه في رأيه، ويفكرون من خلال عقولهم لا من خلال عقله، وإنما ليقيم العدل

بينهم، فينصف مظلومهم، ويعطي محرومهم، ويرحم بائسهم، ويعين ضعيفهم؟!

الجواب وبكل تأكيد لا، بل سمعتم، ورأيتم، وقرأتم عن أناس لو كان القرآن ينزل لكانوا أولى من فرعون أن ينزل بهم، على هذا يدعون أنهم يسعون للحرية والعدل والمساواة.

وإني محدثكم عن هذا بما لا تصدقون لو لم يكن واقعاً يفرض عليكم التصديق.

لقد حدثتكم فيما مر عن عمر الذي امتد سلطانه إلى أعظم دولتين عرفهما التاريخ في زمانه، وهما دولة الفرس والروم، فاجتث كسرى وقيصر، وأقام مكانهما أمراءه الذين وضعوا باسم الإسلام أسس الحضارة التي نتحدث عنها.

وإن رجلاً كهذا في هذا الزمان يتعذر على كبار الشخصيات في العالم أن يروه، علاوة عن أن يجلسوا معه، أو يتحدثوا إليه.

روى أسلم خادم عمر فقال: خرجت مع عمر ليلة، وبعدنا عن المدينة، ونحن نتفقد أهل المنازل النائية، فبصرنا بنار من بعيد، فقال عمر: إني أرى هاهنا ركباناً قصر بهم الليل والبرد، انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم، فإذا بامرأة معها صبيان يتضاغون ـ أي: يبكون ـ فسلم عمر، ثم سأل المرأة: ما بالكم؟

قالت: قصر بنا الليل والبرد.

قال: وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟

قالت: الجوع.

قال: وأي شيء في هذا القدر؟

قالت: ماء أسكتهم به حتى يناموا.. واللهُ بيننا وبين عمر..! ـ وتريد بذلك أن عمر ضيعهم ـ.

فقال لها عمر: رحمك الله، وما يدري عمر بكم؟

قالت: يتولى أمرنا ثم يغفل عنا؟

قال أسلم: فأقبل علي عمر فقال: انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق، فأخرج عدلاً من دقيق، وكبة من شحم، وقال: احمله علي، قلت: أنا أحمله عنك. قال: أنت تحمل وزري يوم القيامة لا أم لك؟ فحملته عليه، فانطلق، وانطلقت معه إليها نهرول، فألقى ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئاً، فجعل يقول لها: ذُرِّي عليّ، وأنا أحرك لك، وجعل ينفخ تحت القدر، وكانت لحيته عظيمة، فرأيت الدخان يخرج من خلال لحيته حتى طبخ لهم، ثم أنزل القدر، وقال: ابغني شيئاً، فأتته بصفحة فأفرغها فيها، فجعل يقول لها: أطعميهم، وأنا أسطح لهم، فلم يزل حتى شبعوا، وترك عندهم فضل ذلك، وقام، وقمت معه.

فجعلت المرأة تقول : جزاك الله خيراً، كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين.

فيقول : قولي: خيراً، إذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك إن شاء الله.

ثم تنحى ناحية عنها، ثم استقبلها فربض مربضاً، فقلت له: لك شأن غير هذا؟ فلا يكلمني، حتى رأيت الصبية يصطرعون، ثم ناموا وهدأوا.

فقام يحمد الله، ثم أقبل علي فقال: يا أسلم، إن الجوع أسهرهم وأبكاهم، فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت.

هذه صورة من صور الحضارة الإسلامية التي يحاول أعداؤها طمسها، لم يرسمها رجل من عامة الأمة، وإنما رسمها قائد الأمة الذي كان يعتبر في زمانه من أكبر القيادات الموجودة في العالم وأقواها.

ولا أظن أنه يوجد في تاريخ الحضارات أروع ولا أعظم من هذه الصورة الحضارية التي تجعل مجتمعها في أرقى درجات المجتمعات المثالية الخيالية.

د ـ النصارى في عهد عمر :

وهل كانت هذه الصورة الحضارية بما يتمتع به المسلمون فقط، أم كانت الصورة الحضارية التي يتمتع بها كل إنسان يعيش على أرض السلام، من مسلم وغيره؟

مرة ثانية سندع الجواب للتاريخ يتكلم فيقول : رأى عمر في السوق رجلاً كبير السن يسأل الناس الصدقة، فقال له عمر : ما بالك أيها الشيخ؟

فقال له: أنا شيخ كبير وأسأل الناس حتى أجمع الجزية المطلوبة مني، والنفقة التي تقيم حياتي، وكان يهودياً من سكان المدينة.

فما تظنون أن عمر يمكن أن يقول له؟

لقد كان عمر هو عمر الذي سما به الإسلام ليقيم به وبأمثاله من المسلمين الحضارة، فما كان منه إلا أن قال له: «ما أنصفناك، أخذنا منك الجزية شاباً، ثم ضيعناك شيخاً، وأخذ بيده إلى بيت المال فقسم له منه ما كان من طعامه، ثم أرسل إلى خازن المال يقول له : افرض لهذا وأمثاله ما يغنيه ويغني عياله . . »

هذه هي الصور الحضارية التي رسمها الإسلام، وتمتع بنعيمها كل من عاش على أرض الإسلام.. وضلت عنها

البشرية الحائرة التي عانت من ضنك العيش لقرون طويلة تحت سطوة وإرهاب رجال الكنيسة، والملوك المستبدين، إلى أن أدركها بصيص من نور الحضارة الإسلامية العظيمة فنادت بها بعد تلك القرون التي تطاولت عليها، إلا أنها مع الأسف لم ترعها حق رعايتها.

٨ـ وسأستطرد في هذا الموضوع ليعلم من فاته العلم أن هذه الصور المثالية التي تفوق الخيال لم تكن خاصة بعصر، أو جيل، أو فئة من البشر، وإنما هي عامة لكل من ارتقت به همته للمعالي والمثل الإسلامية.

فها هو نافع بن هرمز ـ وقد اختلف في اسم أبيه ـ وهو مولى من موالي عبد الله بن عمر، يصل في الإسلام إلى مرتبة ما إخال مسلماً على وجه الأرض، أميراً كان أو مأموراً، غنياً كان أو فقيراً، كبيراً كان أو صغيراً، إلا ويتمنى أن يصل إلى عشر معشارها، ولكن هيهات...

إن القانون الذي حكم الدولة الإسلامية التي امتد سلطانها لمعظم بقاع الأرض مستمد من كتاب الله وسنة رسول الله، وقد ارتبطت السنة بأعلام حفظوها، ودونوها، ونقلوها إلى الأجيال المسلمة بعدهم، وستبقى وتنتقل ما عاش المسلمون والإسلام، ففي ضمير كل مسلم، وفي عقله، وفي كيانه وخلده، رجال يتلألأ نورهم بين جبينه،

ويجرون منه مجرى الدم من العروق، كالبخاري، ومسلم، وأبي داود، والترمذي، وغيرهم من الأئمة الذين ارتبطت السنة بأسمائهم، فهم خالدون في الأمة خلود الإسلام فيها.

وأما العالم الذي عاش فيه أعلام السنة فلم يكن عالم المادة الذي يتفاخر فيه الناس بحطامهم، وإنما كان عالم العلم والمعرفة، وكان الواحد منهم يرتقي بمنزلته - في جملة ما يرتقي به - بعلو إسناده، وضبط رجاله، وكما أن البخاري، ومسلماً مثلاً، خلد ذكرهما في ضمير الأمة، فإن رجالاً فيمن سبق البخاري ومسلماً، خلد ذكرهم في ضمير البخاري ومسلم، وغيرهما من عشرات أو مئات المصنفين في السنة، كخلود البخاري ومسلم، وغيرهم من أئمة الحديث في ضمائرنا.

ومن أولئك الناس نافع مولى عبد الله بن عمر.

فقد روى عن ابن عمر، الصحابي الجليل، عشرات من الرواة، ولكن أشهر الرواة عنه اثنان: أحدهما: ابنه سالم، وثانيهما: مولاه نافع.

وكثير من أئمة الحديث قال: نافع أثبت في حديث ابن عمر من سالم ابنه، مع جلالة سالم وعلو منزلته.

ومن لم يقل هذا فقد ساوى بينهما، وربما رجح سالماً.

قال الشافعي في الثناء على شيخه مالك بن أنس الإمام: إذا ذكر العلماء، فمالك النجم.

ولكن مالكاً هذا الذي أثنى عليه الشافعي قد حلق في سماء المجد، وطار في آفاق الشهرة، وبلغ ما لم يبلغه أحد فيها، إذ روى عن نافع، عن ابن عمر، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان من أعلى الأئمة إسناداً، في رجال من أثبت الرجال رواية.

مالك الذي يدين بمذهبه مئات الملايين من المسلمين على مر التاريخ الإسلامي يفخر أن روى عن نافع مولى ابن عمر..

ويُسأل البخاري عن أصح الأسانيد على وجه الأرض، فيقول: مالك، عن نافع، عن ابن عمر.

فهنيئاً لنافع هذه المرتبة، وهنيئاً له هذه الشهرة، وهنيئاً له هذا المقام الذي أقامه فيه الإسلام، وارتقى به إليه العلم والإيمان.

وهذه هي حضارتنا، يبلغ فيها المرء مبلغ الخلود في ضمير، وسمع، وبصر، المليارات من أبناء الإسلام، مع أنه مولى عتيق.

ونظير نافع في هذا عكرمة، مولى عبد الله بن عباس، ونظيرهما المئات من الموالي الذي زينت بسيرتهم كتب

التاريخ، وترنم بأخبارهم جهابذة العلم، وتمنى مكانتهم السلاطين، والملوك، والخلفاء.

أترى كان نافع سيبلغ هذه المرتبة إن هو عاش في أحضان الحضارة المادية التي يفخر بها إنسان القرن العشرين والقرن الحادي والعشرين.

الجواب وبكل تأكيد لا، بل كان سيمنع من كثير من الحقوق الإنسانية التي يتمتع بها البيض، ولكان ممن سيحجر على أولاده أن يدخلوا مدارس البيض، ويتعلموا مع أولادهم، ولمنع من العلاج في مشافيهم، والحضور إلى نواديهم، بل ربما قيل عنه: إنه إرهابي

وهذه هي صور الحضارة الزائفة أمام الحضارة الإسلامية العظيمة الحقة.

صور من الحضارة المادية المعاصرة:

ولما كانت الأشياء لا تتبين إلا بضدها، فإني سأحدثكم الآن عن بعض مظاهر الحضارة المادية المعاصرة، ولا أعلق عليها، بل أترك الحكم فيها لمن سمع ما كانت عليه حضارتنا، وما هم عليه في حضارتهم.

ولا أريد أن أتكلم عن التمييز العنصري في العصور الوسطى، أو ما قبل وبعد الثورة الفرنسية، وإنما أريد أن أتكلم على الأوضاع المخجلة للسود في أوائل القرن العشرين وفي أمريكا التي تزعم أنها تحمل مشعل الحرية والمساواة في الحضارة المادية المعاصرة.

ففي ميدان الثقافة؛ كان لا يسمح في عشرين ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية للزنوج أن يتعلموا في المدارس التي يتعلم بها البيض.

وتنص الفقرة ٢٠٧ من دستور ولاية المسيسبي على أنه يراعى في حقل التربية والتعليم أن يفصل أطفال البيض، عن أطفال الزنوج، فتكون لكل فريق مدارسه الخاصة.

وكان ينص في ولاية فلوريدا على أن تفصل الكتب المدرسية الخاصة بالطلاب الزنوج، عن الكتب الخاصة بالطلاب البيض.

وأما في ميدان الزواج؛ فقد كان يمتنع في كل الولايات تقريباً زواج بيضاء بزنجي، أو أبيض بزنجية، وتنص دساتير بعض الولايات كولاية المسيسبي على بطلان مثل هذا الزواج، بل على بطلان زواج الأبيض بشخص يكون الدم الذي يجري في عروقه دم زنجي..

وفي ميدان العمل؛ كانت تقضي قوانين بعض الولايات بأنه لا يسمح للعمال الزنوج أن يقيموا مع العمال البيض على صعيد واحد في المصانع، ولا يجوز للزنوج أن يدخلوا أو يخرجوا من الأبواب التي يدخل منها البيض ويخرجون.

وفي ميدان الشئون الاجتماعية؛ تقضي قوانين أربع عشرة ولاية بعزل الركاب البيض في القطارات عن الركاب السود، وتفرض إقامة عربات خاصة للسود في القطارات، وسيارات النقل العامة، وغرفٍ خاصة بهم في المستشفيات حتى في مستشفيات الأمراض العقلية، فإنه يجب أن يفرق بين المجنون الأبيض، والمجنون الأسود.

وإليكم هذا الخبر الذي يفوق كل خبر غرابة وتخلفاً في ركب الحضارة، فقد أعلن صاحب مقبرة للكلاب في واشنطن عام ١٩٤٧ أنه لا يقبل جثث الكلاب التي يملكها الزنوج..

ويقول: إنه يعلم أن جماعة الكلاب لا تجد غضاضة في أن تدفن كلها في مقبرة واحدة، ولكنه لاحظ أن زبائنه البيض قد ساءهم أن تعامل كلابهم المدللة هذه المعاملة المنكرة بعد الوفاة، فتدفن في مدافن يدفن فيها كلاب الزنوج.

وكثيراً ما كان يعتذر الساسة الأمريكيون عن هذا الوضع المخجل، بأن كراهية الزنوج تكون على أشدها في الولايات الجنوبية التي تعتبر أقل حضارة من الولايات الشمالية.

ولكن الواقع يرد هذا الاعتذار؛ ففي جميع المدن الشمالية نجد الكثرة الغالبة من السكان الزنوج محشورة في أحياء قذرة، تتألف من بيوت خشبية متداعية تسرح فيها الفئران والجرذان، وكانت الغرفة الواحدة في حي هارلم - حي الزنوج في نيويورك - تحتوي على تسعة عشر زنجياً، حتى قالت إحدى الصحف في ذلك الوقت: لو اتخذنا كثافة السكان في حي هارلم قاعدة، وحاولنا أن نطبقها على سكان الولايات المتحدة كلها، لكان في ميسورنا أن نحشرهم جميعاً في نصف نيويورك.

وكان يعيش في واشنطن مئتان وخمسون ألفاً من الزنوج - وهم ربع المدينة في ذلك الوقت - كانوا يعيشون في زرائب دون زرائب الحيوانات، وكان محظوراً عليهم أن يدخلوا الفنادق، والمطاعم، والمسارح، والمدارس، والمستشفيات، بل الكنائس.

وقد دخل زنجي من جمهورية بناما كنيسة كاثوليكية في واشنطن، وبينما هو مستغرق في صلاته سعى إليه أحد القسس، وقدم له قصاصة ورق قد كتب فيها عنوان كنيسة زنجية كاثوليكية، وحين سئل القس عن سر هذا التصرف أجاب: أنه يوجد في المدينة كنائس خاصة بالكاثوليك الزنوج يستطيع هذا المرء الأسود أن يقف فيها بين يدي ربه..

وكما ذكرت في بداية هذه الصور؛ لا أريد التعليق على ما ذكرت بل أدع التعليق لمن سمع ما كان عليه العبيد والموالي في ظل حضارة الإسلام قبل ثلاثة عشر قرناً، مع ما كانت عليه الحضارة المادية المعاصرة الزائفة في بداية القرن العشرين.

وأذكر قول الشاعر:

وكـل يـدعي وصـلاً بليلـى
وليلـى لا تقـر لهـم بـذاكا

إذا اشـتبكت دمـوع في خـدود
تـبين مـن بكـى ممـن تباكـا

كلام الأمريكيين أنفسهم عن حضارتهم:

وسأدع الكلام للأمريكيين أنفسهم يتكلمون لنعلم ما هي المكانة التي يتمتع بها السود الملونون هناك.

يقول جيمس بيزنز عضو مجلس الشيوخ الأمريكي: ليس لأيما رجل ملون، تعمر قلبه الرغبة في المساواة السياسية، عمل ما في ولايات الجنوب، إن هذه البلاد ملك للرجل الأبيض، ويجب أن تظل كذلك اهـ.

ويقول هاري هايوود الأمريكي في كتاب «تحرير الزنوج»: ليس من شك في أن العرق لم يتخذ في بلد ما

ـ سوى أفريقيا الجنوبية ـ وسيلة إلى استعباد شعب من الشعوب، كما اتخذ في أمريكا، لقد انتهى الرق بوصفه امتلاكاً للعبد، ولكنه ما يزال باقياً بوصفه نظاماً طبقياً، وإنما يقصد به اليوم إلى بقاء الملونين في مراكز أدنى من ذلك الذي يتمتع به البيض، ويتوصل إلى ترسيخه بطرائق مختلفة، فهي حيناً أحكام قتل، أو إعدام، ينزله الجمهور الأرعن في الزنجي، بمعزل عن السلطة الحاكمة، وهي حيناً تشريعات مجحفة، وإجراءات قانونية ظالمة، وهي حيناً عادات وتقاليد ما أنزل الله بها من سلطان اهـ.

ويقول الاقتصادي الأمريكي فكتور بيرلو: والذي لا ريب فيه أن الصناعيين من أهل الشمال الذين سيطروا على الحكومة الفيدرالية، في عهد الحرب الأهلية، لم يكونوا راغبين في تحرير الشعب الزنجي تحريراً صحيحاً، كل ما كانوا يسعون بسبيله هو أن يحلوا محل مالكي العبيد الجنوبيين في استغلال الشعب الزنجي أقصى ما يكون الاستغلال، والحق أن النهج السياسي الذي اتبعه الحزب الجمهوري، والجيش، في الولايات الجنوبية؛ كان تحالفاً مع مالكي العبيد السابقين، لإخضاع الشعب الزنجي من جديد.

ثم يقول: لقد انتشرت سموم التعصب العرقي في طول البلاد وعرضها، وتسربت إلى مجاري المياه الأمريكية

جميعاً، فإذا بجماهير الشعب تتعود اصطناع تعابير الاستخفاف والاحتقار في معرض الإشارة إلى الشعب الزنجي، والأقليات القومية الأخرى اهـ.

وأخيراً إليكم هاتين القصتين وإحداهما تحكي صورة عن الحضارة المادية المعاصرة، والأخرى تحكي صورة الحضارة الإسلامية العظيمة.

أما الصورة الأولى فقد جرت أحداثها عام ١٩٤٦ حينما قصد زنجي مدينة كولومبيا وأمه إلى محل لإصلاح جهاز الراديو الخاص بهما، وبعد أن دفعا الأجرة المطلوبة تبين لهما أن الجهاز لا يزال على حاله، ولم يصلح فيه شيء، فقالت الأم الزنجية: ثلاثة عشر دولاراً والجهاز لا يزال أخرس؟

فأمر صاحب المحل بطردهما، ورفس أحد المستخدمين الأم برجله، فخرت على وجهها، فغضب الزنجي لأمه، وضرب المعتدي عليها، فأهوى به على الأرض، فما كان من جاره إلا أن صرخ بالجماهير: اقتلوا هذا المجرم، وتجمع الناس ينادون: فلنقتص منهما، والاقتصاص من الزنوج عند الأمريكيين يكون بفصل رؤوسهم عن أجسادهم فوراً، بدون محاكمة، وأخيراً أنقذا من بين أيدي الجماهير وسيقا إلى السجن، لكن الجماهير لم

ترض بذلك، بل تدفقت إلى حي الزنوج للاقتصاص من الزنجية وولدها، وحاصرت الشرطة الحي المنكوب، وطردوا الزنوج المغلوبين على أمرهم من بيوتهم، ومحلاتهم، فنهبت محلاتهم وأحرقت، وأطلق الرصاص عليهم فسقط منهم الكثير بين قتيل وجريح.

فهذه الصورة الأولى وهي صورة الحضارة المادية المعاصرة المزيفة.

وأما الصورة الثانية فهي صورة من آلاف بل عشرات الآلاف من صور الحضارة الإسلامية العظيمة، وهي قبل هذه الواقعة بثلاثة عشر قرناً، ففي عام مائة من الهجرة شكت جارية سوداء تسمى فرتونة إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بأن لها حائطاً قصيراً يقتحم منه عليها، فيسرق دجاجها، فأرسل عمر فوراً إليها يخبرها: أنه أرسل إلى والي مصر، يطلب إليه أن يصلح لها حائطها، ويحصن لها بيتها.

وكتب إلى واليه في مصر أيوب بن شرحبيل: إن فرتونة مولاةَ ذي أصبح قد كتبت إلي تذكر قصر حائطها، وأنه يسرق منه دجاجها، وتسأل تحصينه لها، فلما وصله الكتاب؛ ركب بنفسه إلى الجيزة، ليسأل عن فرتونة حتى عثر على محلها، فإذا هي سوداء مسكينة، فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين، وحصن لها بيتها.

فماذا يقول أدعياء الحضارة أمام هاتين الصورتين المتناقضتين من صور حضارة زائفة تدعي الحضارة، وحضارة مثالية ملأت الدنيا، في كل جانب من جوانب الحياة. بملايين الصور التي لم يعرف الإنسان إنسانيته إلاَّ من خلالها؟!

والجواب: أنه لا وجه للمقارنة بين حضارة زائفة، وحضارة حقة، وأن المقارنة بين الحضارتين ينزل بقيمة حضارتنا الإسلامية العظيمة، على حد قول الشاعر:

ألم تر أن السيف ينتقص قدره

إذا قيل: هذا السيف خير من العصا؟

عظمة الحضارة الإسلامية في الدعوة إلى الإسلام:

لقد امتد سلطان الدولة الإسلامية حتى شمل معظم بقاع المعمورة في أيام الدولة الأموية، والعباسية.

فكان البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية، وكانت القارة الآسيوية تقريباً قارة إسلامية، إلى جانب وسط أفريقيا وشمالها، ونصف القارة الأوروبية.

ولم تكن الفتوحات الإسلامية كلُّها بالحروب، فقد كان بعضها بالحروب وبعضها الآخر بجهود الدعاةِ من المجاهدين، والتجار، والمهاجرين.

فكانت الكلمة تخرج من قصور الخلافة في دمشق أو بغداد، وتمضي في كل تلك البقاع، دون مدافع، أو منازع.

ودخل معظم أهل البلاد التي فتحها المسلمون في الإسلام، وتحول كثير من تلك البقاع إلى بقاع عربية، فقد نسي الناس أمام عظمة الإسلام قوتهم، وأصولهم، كما نسوا أمام لغة القرآن لغتهم.

دخول الناس في الإسلام طواعية:

وإن كل من يطلع على تاريخ البشرية في الحرب، ليعتقد لأول وهلة أن الإسلام فرض على أهل البلاد المفتوحة بالسيف والقوة، والقهر، والغلبة، كما أشيع عنه، ويشاع عنه اليوم.

ولكن الحقيقة المذهلة التي لا يعرف التاريخ غيرها، أن كل من دخل في الإسلام في كل بقاع الأرض، ومن كل أمة، أو ملة، أو عقيدة، إنما دخل في الإسلام برضاه، طواعية، دون خوف أو إكراه، وذلك لما رآه الجميع في الإسلام مما تتطلع إليه إنسانيتهم، وتهفو إليهم أرواحهم، وتبحث عنه وتذعن له عقولهم.

شعار المسلمين في الدعوة إلى دينهم:

ولم يسجل التاريخ خلال ثلاثة عشر قرناً حكم بها المسلمون معظم بقاع العالم أن أحداً من الناس قد أكره على الدخول في الإسلام.

وذلك أن شعار الحضارة الإسلامية العظيمة التي حملها المسلمون إلى بقاع العالم الذي فتحوه هي:

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فلم تكن غاية المسلمين في فتوحاتهم إكراه الناس على الدخول في الإسلام، إنما كانت غايتهم تحرير الإنسان من عبوديته للإنسان، وتركه بعد ذلك يختار، إن شاء دخل في الإسلام، وإن شاء بقي على دينه ومعتقده.

ويظهر هذا جلياً في المفاوضات التي كان يجريها المسلمون مع أعدائهم قبل الحرب والبدء بالقتال.

فقد سأل رستمُ قائد الفرس رِبْعيَّ بن عامر رسول المسلمين إليه قبل معارك القادسية فقال له: ما الذي ابتعثكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدالة الإسلام.

وهذا الذي قاله ربعي بن عامر كان يقوله كل رسول للمسلمين بين يدي الملوك والقواد الذين يفاوضونهم.

وقد أثبتت وقائع التاريخ هذا، فلم ينقل أبداً أن أحداً من البشر، أكره على الدخول في الإسلام على طيلة هذا التاريخ، وغزارة أحداثه التي تكاد تكون غير متناهية.

بل كان كثير من الشعوب والأمم ينتظر بفارغ الصبر الجيوش الإسلامية أن تقرع بابها، لتحررها من الظلم والاضطهاد، والتجبر والاستعباد، مما كان يمارس ضد تلك الشعوب والأمم من قبل قساوستهم ورهبانهم.

سبب ثورة الناس على الكنيسة:

ومن ذا الذي يجهل ما كانت تعانيه الأمم النصرانية من طغيان الكنيسة والرهبان الذين استبدوا بها، وبمقادير الناس الذين قهروا تحت سلطانها؟

لقد أنت الشعوب الأوروبية مثلاً لقرون تحت وطأة الكنيسة التي وصل طغيان رجال الدين فيها لدرجة يستحي التاريخ نفسه أن يرددها، ويندى جبين الإنسانية خجلاً إذا ذكرها، حتى أوصل الناس لدرجة من الحقد على الكنيسة والتربص بها، وعلى الملوك وتحين فرصة الثأر منهم؛ أن صار شعار الناس: «اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس».

الترتيب الطبقي عند الهندوس:

ومن ذا الذي يجهل ما كان عليه المنبوذون في الترتيب الطبقي عند الهندوس وما هم عليه إلى اليوم، وإني لأظن أن أخسَّ الكائنات الحية مكانة عند الإنسان لو عرض عليها أن تعيش في مرتبة المنبوذين لأبت هذه الحياة.

وهذا ما عاملت به النصرانية أو الهندوسية، أو غيرهما من الملل والنحل الكثيرة، التي لا داعي للإسهاب في تعدادها، هذا ما عاملت به أتباعها، فكيف تعامل إذاً أعدائها؟!

تطلع الشعوب المضطهدة للإسلام:

وكذلك وجدت كل الشعوب المضطهدة في الأرض وجدت في الإسلام أحلام إنسانيتها، وغاية مطلبها ومرادها، فما كان منها إلا أن دخلت فيه أفواجاً أفواجاً طلباً للحرية، وبحثاً عن الإنسانية، رغبة لا رهبة، ومحبة لا كراهية.

وأنى يتمالك الفار من جحيم الكنيسة، أو استعباد الرهبان.. نفسه حين يسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من آذى ذمياً فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله».

أو حين يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد مر عليه بجنازة، فقام لها، فقيل له: إن الميت غير مسلم، فقال: «أوليس إنساناً»(١).

أنى يتمالك نفسه - إزاء هذه العظمة، والمثالية، والرحمة - فيكفها عن الإسلام؟

وإذا كانت هذه معاملةَ الإسلام لأعدائه في ظل دولة الإسلام وحضارته، فكيف تكون معاملته لأبنائه وأتباعه...؟

وهل عامل أعداء المسلمين المسلمينَ هكذا في تاريخهم؟

سندع التاريخ يجيب عن هذا من خلال وقائعه.

صور من معاملة أعداء الحضارة للمسلمين:

لقد حكم المسلمون الأندلس ما يقارب ثمانية قرون من سنة ٧١٠م إلى ١٤٩٢م وأقاموا فيها أعظم حضارة إنسانية في جميع جوانب الحياة، في العلوم والفنون، والآداب، والبناء، مما سنتحدث عنه قريباً إن شاء الله، وكانت هذه الحضارة نواة الحضارة الأوروبية الحديثة.

---

(1) رواه البخاري ١٣١٢، ومسلم ٩٦١.

وعاشت اليهود، والنصارى، وغيرهم في ظلال هذه الحضارة على النحو الذي ذكرناه في معاملة المسلمين لغيرهم، يقومون بتجاراتهم، ويتعبدون في كنائسهم وبيعهم، ويصلون إلى كثير من المراتب العلية في وظائف الدولة.

معاملة الإسبان للمسلمين في الأندلس:

ودارت الأيام، وسقطت الأندلس في يد الإسبان.

وكان من شروط تسليم غرناطة أن يتمتع المسلمون بالمال، والسلاح، والدين، والمساجد، وغير ذلك من الشروط التي تضمن للإنسان حريته، في دينه ومعتقده.

ولكن ما إن استتب الأمر للإسبان حتى بدأوا بالتنكر لهذه الشروط وبدأوا بتدمير آثار المسلمين من القلاع، والحصون، ورفعوا عليها الصليب والشارات النصرانية

ثم انقلبوا إلى المساجد، فهدموا منها ما هدموا وأحالوا بقيتها إلى كنائس، أو حظائر للحيوانات.

وليس هذا فقط، بل منعوا المسلمين من إقامة شعائرهم الإسلامية، ما ظهر منها وما بطن، في الرجال والنساء، وكل جوانب الحياة.

ووراء كل هذا فرضوا عليهم التنصير، وتغيير أسمائهم الإسلامية إلى أسماء نصرانية، وكل من أبى التنصير قتل أو أحرق.

وأقاموا لهذه الغاية محاكم التفتيش، تتجسس على المسلمين في حياتهم الخاصة والعامة، فكل من ثبت أنه لم يتنصر فإن عقابه القتل أو الإحراق.

فعلقت آلاف النساء من المسلمات من أرجلهن في المجازر، وسلخت جلودهن وهن أحياء، لأنه ثبت أنهن لم يرتددن عن الإسلام، ولم يعتنقن النصرانية.

وكانت الجواسيس تتجول بين المسلمين، فمن ثبت عنه أنه لم يتنصر إما برؤيته يصلي، أو برؤية القرآن في بيته، أو بأن يقول أحد أولاده الصغار: إننا مسلمون، فإن هذا كافٍ لإثبات أنه لم يتنصر، ولو كان قد قلب اسمه لاسم نصراني، فالولد الصغير حينما يقول: أنا مسلم، فإن هذا يعني أنه سمع هذا من أبيه، وهذا يكفي لإثبات التهمة عليه، وأنه لم يصر نصرانياً حقاً.

وكان الحطب يجمع طيلة أيام لأسبوع في الساحات العامة، ويأتي الملك النصراني أو من يمثله إلى الساحة الرئيسية يوم الأحد، ويؤتى بالخاطئين ـ وهم الذين ثبت أنهم لم يتنصروا حقاً، ولو غيروا أسماءهم كما ذكرت -

ويوضعون فوق الحطب لإحراقهم، ويأتي القس أو الراهب ليلقنهم التوبة عن الإسلام قبل إحراقهم.

ويؤتى بجميع أقاربهم ـ من ذوي القرابة القريبة أو البعيدة ـ ويجلسون في الصف الأول من صفوف الجماهير التي كانت تحتشد لترى عذاب المسلمين بالإحراق، وليس هذا كلّ ما في الأمر.

فالأفظع من هذا أن الذي يشعل النار لإحراقهم يجب أن يكون مسلماً من أقاربهم إن أمكن، ليثبت أنه تنصر حقاً، وأنه لا تأخذه بأولئك الخاطئين الذين لم يرتدوا عن الإسلام إلى النصرانية رأفةٌ ولا رحمة.

وليس هذا كلَّ ما في الأمر.

فالأفظع من هذا أن الجواسيس كانوا يتجولون بين أقارب المحروقين الذين جلسوا في الصف الأول لمشاهدة إحراق أقاربهم، ويجب عليهم أثناء مراسم الإحراق أن يُبدوا الرضى والسرور لما يجري من إحراق أقاربهم، فإذا وجد الجواسيس علامة من علامات السخط على وجه أحدهم، علم أن هذا الساخط على ما يجري من الإحراق ليس بمتنصر حقيقة، وهذا يعني أنه أول من سيحرق في الأحد القادم.

وهذا الذي أقوله ليس قول مؤرخي العرب، وإنما هو قول مؤرخي الغرب..

ومن أراد الاستزادة عن معرفة النهم في ولوغ الدماء الإنسانية؛ فليقرأ ما كتب عن محاكم التفتيش، إنه لكلام يشمئز المسلم مهما ضعف إسلامه من سماعه، علاوة عن أن يطبقه أو يدنو من تطبيقه.

أو عرفت البشرية أفظع، وأبشع، وأخس من هذه الأحقاد الدفينة في صدور أدعياء الحضارة.

إنه التوحش الإنساني في أشنع صورة، وإنها الحقيقة التي فرضت على مؤرخي الغرب أن يقولوا: ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب.

معاملة الصليبيين للمسلمين في الحروب الصليبية:

وسأضرب مثلاً آخر من حضارة القوم ليعلم من فاته العلم أنهم سواء في توحشهم وإن اختلفت مسمياتهم وجنسياتهم، فالقلب إذا فرغ من الإيمان الحق؛ انقلب صاحبه في بعض حالاته إلى وحش تترفع عنه الوحوش.

لا أحد يجهل الحروب الصليبية، ولكن كثيراً من الناس يجهلون ماذا عمل الصليبيون فيها حينما كان يتاح لهم العمل.

لقد فتح المسلمون بلاد الشام ووصلت جيوش المسلمين إلى حمص، وعلى ما ذكرت، حمل المسلمون معهم في فتوحاتهم الحضارة، والحرية، والعدالة، إلى البلاد التي فتحوها، مما لا يخفى على أحد من أهل الأرض.

وأخذ خالد بن الوليد الجزية من أهل حمص، ممن أراد البقاء على دينه، مقابل حمايته وحماية دينه وعرضه.

إلا أن المسلمين اضطروا أمام تجمع الجيوش الرمانية بعد هزيمتها اضطروا لأن يسحبوا جيشهم من حمص، مما اضطر خالد بن الوليد أن يجمع أهل حمص ممن أخذ منهم الجزية، ليقول لهم: إننا أخذنا منكم الجزية مقابل حمايتكم، ونحن الآن مضطرون لمغادرة حمص، ولن نستطيع الدفاع عنكم، ولذلك فلابد من إرجاع ما أخذناه منكم من المال مقابل الدفاع عنكم..

فما كان من أهل حمص إزاء هذا الموقف الحضاري الإنساني النبيل إلا أن يودعوا الجيش الإسلامي بالدموع والبكاء، راجين منهم العودة إليهم، ليتمتعوا بنعيم الحرية والعدالة التي افتقدوها طيلة حياتهم، ولم يجدوها إلاَّ في ظلال الحضارة الإسلامية التي حملها المسلمون إليهم.

وقامت الحروب الصليبية بعد قرون، ودخل الصليبيون إلى ديار الإسلام، فماذا تراهم فعلوا؟

سأدع التاريخ ثانية يتكلم. . يقول المؤرخون: إنهم حملوا إلى الديار الإسلامية التي دخلوها الخراب، والدمار، والأحقاد الوالغة في الدماء.

وصلوا إلى معرة النعمان واضطر أهلها بعد محاصرتهم للاستسلام، شريطة المحافظة على دمائهم، وأموالهم، وأعراضهم، ولكن هل كان هذا..؟

يقول بعض المؤرخين ممن حضر وقائع دخول الصليبيين إلى المعرة أنه أحصى عدد من قتلهم الصليبيون من الرجال والنساء، والأطفال، فبلغ ما يزيد عن مئة ألف إنسان إلى جانب ما ألحقوه من الدمار، والخراب بكل ما مروا عليه من العمران سوى المعرة من المدن والقرى.

وتابعوا طريقهم إلى بيت المقدس، وباختصار الحوادث طلب أهل القدس الأمان للاستسلام، فأعطاهم الصليبيون الأمان كما أعطوه لأهل المعرة وغيرها من المدن الإسلامية التي احتلوها، وقالوا لهم: من دخل المسجد الأقصى فهو آمن، فالتجأ الناس إلى المسجد وساحاته المحيطة به، ودخل الصليبيون القدس، وأول ما بدأوا به هو الغدر بالمسلمين ممن لجأ إلى المسجد فيقول: لقد قتل

الصليبيون في يوم واحد ما يزيد عن سبعين ألفاً من المسلمين من رجل، وطفل، وامرأة، وعابد، وزاهد، ممن رأوه من المسلمين، حتى طهروا المدينة كلها منهم، وسالت الدماء، حتى وصلت في المعبد إلى ركبة الناس، وكانت المدينة تمتلئ بالجثث والأعضاء المبتورة الملقاة في شوارعها.

ملحمة صلاح الدين حين استرجع من الصليبيين القدس:

ودار الزمان دورته، وجاء القائد الإسلامي المظفر صلاح الدين الأيوبي بجيوشه الإسلامية، وحارب الصليبين، وانتصر عليهم، وفتح بيت المقدس وفيه ما يزيد عن مائة ألف من الصليبيين الغربيين، فماذا تراه يفعل بهم وأيديهم مازالت ملطخة بدماء المسلمين بالأمس، وأخبار فظائعهم ومجازرهم وويلاتهم مازالت ترن بكل سمع، وتتراءى لكل ذي بصر.

لقد كان من أبسط مبادئ قوانينهم التي تعاملوا بها مع المسلمين حينما اقتحموا عليهم ديارهم أن يبيدهم عن آخرهم، وهو لو فعل لأنصفه التاريخ، لأنه عاملهم قصاصاً عادلاً على الجرائم التي ارتكبوها حينما أبادوا المسلمين ظلماً.

ولكن إيماناً ملأ بالرحمة قلبه، وديناً عظيماً سدد بالعدالة حكمه، وغاية نبيلة يحملها باسم الإسلام في حروبه ومعاركه، جعلته يعطيهم الأمان على أنفسهم وأموالهم،

ويمهلهم أربعين يوماً للخروج بما يقدرون عليه من أموالهم ومتاعهم، ليحملوا معهم إلى من خلفهم من الصليبيين وغيرهم أعظم، وأرقى، وأنبل صورة عرفها تاريخ الحروب.

عاهدوا فغدروا، وعاهد فبر، وقدروا ففجروا، وقدر فغفر.

إنها حضارة الإسلام العظيمة التي كانت، ومازالت، وستبقى راياتها خفاقة، بيضاء ناصعة، تتيه على كل حضارة عرفها الإنسان في تاريخه.

ولولا أن هذه الوقائع قد دونت من قبل مؤرخي الغرب لقلنا إنها من ضروب خيال مؤرخي الشرق، ولكنها أقوال مؤرخيهم، والفضل ما شهدت به الأعداء.

وزاد ذلك الفاتح العظيم، والفارس المؤمن النبيل، فمنَّ على النساء اللائي جئن إليه يبكين أزواجهن الذين هم في أسره، فمن عليهم بالفداء..

وليس في هذا الذي أذكر مفاجأة لنا نحن المسلمين، فهذه هي حقيقتنا المستوحاة من تعاليم ديننا، وقد تأسى فيها بطلنا العظيم صلاح الدين بنبيه صلى الله عليه وسلم الذي من بالفداء على الذين طردوه من أرضه، وحاولوا بشتى الوسائل قتله، ثم قال لهم يوم فتح مكة: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ولكن المفاجأة والمأساة أن بعض اللائي خرجن من القدس بأمان صلاح الدين، وهن يحملن أجمل صور الحضارة الإنسانية في ظل الإسلام، قد انتحرن، حينما حاول أبطال الصليبيين الاعتداء عليهن في طريق الفرار، لإكمال صور العدالة التي حملوها للعالم.

هل اختلف الحقد الصليبي عما كان عليه؟

يمكن أن يقال: إن ما حفظه التاريخ من فظائعهم إنما كان بسبب تخلفهم الحضاري الذي كانوا فيه، إلا أن القوم قد تغير حالهم، وارتقوا في سلم الحضارة، فهم اليوم ليسوا كآبائهم وأجدادهم في أحقادهم وضغائنهم، وهم اليوم رواد الحضارة في العالم.

وإني لأتمنى لو كان القوم على هذا الوصف، إلا أن الواقع يكذب هذا، فهم رغم ما يصفون به أنفسهم من الحضارة والرقي مازالوا يحملون في قلوبهم أحقاد آبائهم وأجدادهم، وإن لم يكونوا أكثر حقداً وأنانية منهم.

وإن نظرة سريعة على التاريخ الحديث لكفيلة بأن تؤكد ما نقول، بل تؤكد أن القوم أكثر مما نقول.

ما عمله أدعياء الحضارة المعاصرون:

فلا أحد في الدنيا يجهل ماذا عمل الروس بعد الثورة البلشفية بالمسلمين وغيرهم من أهل البلاد التي توغلوا فيها وأخضعوها لسلطانهم، سواء أكان في شمال آسيا أو في أوروبا الشرقية بعد تقسيمها.

كما أنه لا أحد يجهل ما عملته الجيوش النازية في البلاد التي اجتاحتها، أو معسكرات العمل التي أوجدتها.

وعندما احتلت طنجيقيا زنجبارَ البلدَ الإسلامي المجاور قتلت جيوشها الغازية ما يزيد عن مائة ألف من العرب المسلمين فيها، وألقيت جثث الكثيرين منهم في البحار طعاماً للأسماك، وشكلت دولة حديثة هي تنزانيا.

وحدث مثل هذا على شكل أوسع وأعنف وأكثر دموية عندما أخضع المسلمون في البلقان للشيوعية في الدولة الاتحادية التي كانت تسمى بيوغوسلافيا

وعندما قامت الثورة في الجزائر ضد فرنسا، والتي طالب فيها الشعب الجزائري المسلم بحقه في أن يعيش في بلاده بحرية وسلام، فأراد أن يحرر بلاده من نير الاستعمار الفرنسي الغاشم لها؛ كان جواب الحضارة الفرنسية في القرن العشرين أن قتلت مليوناً ونصف المليون من أبناء الشعب

الجزائري، لتعلم البشرية كيف تكون الحضارة الإنسانية في العصر الحاضر.

وانتصرت الثورة الإسلامية في الجزائر بمليون ونصف المليون من الشهداء، حتى لا يبقى بيت في الجزائر إلا وهو يشدوا بأهازيج الحرية والعدالة التي حملتها لهم فرنسا، في حضارتها المعاصرة التي أرادت أن تبيدهم بها.

ولا أريد أن استطرد في ذكر ما فعلته جيوش الغربيين المستعمرين في البلاد الإسلامية، وما ذكرناه عن الجزائر صورة تكررت على أيديهم في كل البلاد التي استعمروها.

ولكني أريد أن أنتقل إلى بلغاريا في السبعينيات، وكانت في ذلك الوقت خاضعة لسلطان الشيوعية ونفوذها، وكانت تدعي كغيرها من الدول الأوروبية العلمانية، ولكن علمانيتها في الحقيقة كانت حرباً على المسلمين، ومازالت تضيق الخناق عليهم في شتى المجالات والميادين حتى حرمتهم من حقوقهم المدنية، ووصل الأمر بها إلى درجة أن الذي لا يغير اسمه، من اسم إسلامي إلى اسم نصراني؛ فإنه يحرم من كل حقوقه المدنية..

ولا أريد أن أبعد، فربما كانت السبعينيات في القرن الماضي بعيدة، فقد مر عليها ما يقارب ثلاثين عاماً، ولكني أريد أن أتحدث عما يعرفه كل من يقرأ هذا الكلام تقريباً،

وهو ما عمله الصليبيون من الصرب وغيرهم بالمسلمين في البوسنة، والهرسك، وكوسوفو، وغيرها من دول البلقان، من إحراق البيوت، وتدمير القرى، وإبادة المسلمين إبادة فردية وجماعية، فقتلوا عشرات الآلاف، وشردوا مئات الآلاف، وهدموا المساجد، وانتهكوا الأعراض، ولم تأخذهم رأفة بشيخ كبير، أو عجوز مسنة، أو طفل صغير، بل أرادوا إبادة المسلمين إبادة كاملة.

ووصل الأمر بهم إلى أن عملوا بالنساء إلى جانب انتهاك أعراضهن ما تستحي الحروف أن يُنْطَقَ بها للتعبير عنه، بما لم يعملوه مع أخس الكائنات الحية التي يمتهنونها هم، وكان هذا على بصر العالم الذي يدعي الحضارة وسمعه، إلا أنه كان يبصرهم بعين عمياء، ويسمعهم بأذن صماء، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ومازال العالم يمهلهم ويترنم بجرائمهم حتى ارتوت الأرض من دماء المسلمين، وارتوت أحقادهم من الولوغ فيها.

وهنا أريد أن أسأل: ما الفرق بين محاكم التفتيش التي أقيمت للمسلمين في الأندلس بعد سقوطها، والمجازر المروعة التي ارتكبها الصليبيون في ديار الإسلام في الحروب الصليبية حينما دخلوها، وبين ما جرى للمسلمين في البوسنة

والهرسك وكوسفو والشيشان وغيرها من بلاد الإسلام في العصر الحاضر.

لا فرق بين الجميع، إنه منهج واحد، تمليه عقيدة واحدة، على مر التاريخ القديم والحديث، ليكون ما يجري شاهداً في كل عصر على الفارق بين الحضارة الإسلامية، التي فرضت على أعدائها أن ينحنوا بهاماتهم إجلالاً وإكباراً واحتراماً لها، وبين حضارة سِجِل تاريخها مليء بالأحقاد، والدماء، والويلات والشرور.

* * *

التكافل الاجتماعي في الحضارة الإسلامية:

سأنتقل في الفقرات القادمة إلى الكلام عن جانب آخر من جوانب الحضارة الإسلامية ألا وهو التكافل الاجتماعي فيها.

ولاشك أن أكثر دول العالم اليوم لتفخر بما استطاعت أن تقدمه لشعوبها من الضمانات في الحياة.

وكلما كانت الضمانات للفرد أكثر؛ كانت أدل على ارتقائها في سلم الحضارة الذي تسعى للوصول إلى ذروته.

فصارت الضمانات الاجتماعية التي تقدم للفرد في المجتمعات المعاصرة من أهم معايير الرقي في العالم اليوم.

والسؤال الآن هل يوجد في المجتمع الإسلامي تكافل اجتماعي على غرار التكامل الاجتماعي الذي تعيش فيه كثير من المجتمعات الإنسانية في بعض الدول الأوروبية والأمريكية وغيرهما.

وإنه لسؤال وجيه يطرح نفسه، ويطرحه اليوم كل من يعيش في ظلال الحضارة المادية المعاصرة في جانبها الاجتماعي، وفي جانب التكافل بشكل خاص، لاسيما إذا كان يعلم من خلال ما يشاهده، أو يسمعه، عن المجتمعات الإسلامية التي تعيش في أقسى درجات البؤس، والتخلف..؟!

والجواب على هذا وبكل فخر واعتزاز: نعم، بل هو أعظم نظام في التكافل عرفه العالم إلى اليوم.

التكافل في النظام المادي المعاصر قائم على الضرائب:

إن معظم دول العالم اليوم تفرض الضرائب على المواطنين من أجل قيام الدولة، وتقديم الخدمات للإنسان المقيم بها.

وهذا الضرائب تصل في بعض البلدان إلى ٥٥٪ أي أنها تصل إلى ما يزيد عن نصف دخل الإنسان، وربما زادت في بعض البلاد عن ذلك.

والإنسان لا يدفع هذه الضريبة وهو راض، وإنما يدفعها وهو كاره لها، يحس بأن الدولة تقاسمه أرباحه وأتعابه، ويحاول بشتى الوسائل أن يحتال عليها للتخلص منها، ولذلك نجد كل من يدفع الضرائب ـ لاسيما في نسبها العالية ـ له مستشار ضريبي قانوني يعلمه كيف يعمل من أجل أن يتخلص من أكبر قدر ممكن من هذه الضرائب، وهذا يدل دلالة صريحة على أنه لو تمكن من أن لا يدفع لما دفع، ولا يهمه غيره من البشر، ممن يحتاج إلى هذه الضرائب التي يدفعها، فأنانيته فرضت عليه اهتمامه بنفسه، دون شعور بغيره.

التكافل الاجتماعي في الإسلام:

وأما التكافل الاجتماعي في الإسلام فلم يكن مما تفرضه الدولة على الإنسان وهو كاره له غير مقتنع به، وإنما كان بوسائل شتى، وكلها نابعة من إيمان الإنسان بوجوب مساعدة أخيه الإنسان، ليقوم المجتمع المتكافل المتضامن، مما افترضه الله على عباده، فهو يفعل ما يفعل بالرضى والسرور، لنيل مرضاة الله.

وبعض هذه الوسائل التي جاء بها الإسلام للتكافل الاجتماعي فرض، لابد من أداته، وبعضها نافلة وقربه يقوم به المسلم وراء ما افترض عليه.

الزكاة في الإسلام مصدر من مصادر التكافل:

أما ما كان من الفرض فهو الزكاة، وهي حق معلوم من المال يجب على الأغنياء دفعه للفقراء، وهو إجمالاً ٢,٥% اثنان ونصف بالمائة.

وهذه الزكاة ليست مجرد واجب يقوم به الإنسان ما دام يطالب به من قبل الدولة، فإذا غفلت عنه تركه، وإنما هو ركن من أركان إسلامه، فلا يصح إسلام المرء حتى يؤمن بأنه يجب عليه أن يخرج جزءاً من ماله لمن يحتاجه من الفقراء والمساكين، وغيرهم ممن يستحق الزكاة.

ولذلك فإن المسلم عندما يخرج زكاة ماله، فيجد الفقير الذي يأخذ هذا المال؛ يرى في أخذ الفقير لماله مِنَّةً عليه إذ مكنه من إقامة ركن إسلامه وهو الزكاة، وسره إذا رأى أخاه مسروراً بوصوله إلى كفايته وحاجته.

والمسلم حينما يدفع الزكاة للفقير مباشرة فالأمر واضح في الوصول إلى الغاية من إخراج الزكاة، وهو سد حاجة المحتاجين في المجتمع، وإن دفعها إلى الدولة فهو لا يملكها لها، وإنما هي نائبة عن المحتاجين في القبض لهم، ولا يجوز لها الاستئثار بها، بل يجب عليها دفعها لهم مباشرة عند وجودهم.

وهذه الزكاة لا تدفع مرة واحدة في العمر، وإنما يجب دفعها كل عام في غالب ما تجب فيه الزكاة، مادام الإنسان غنياً.

إنها أعظم صور المواساة في المجتمعات الإنسانية، الغني يبذل ماله بكل الرضا والسعادة والسرور لأخيه المحتاج، فيدخل السرور إلى قلبه، ويذهب عنه شقاء الحاجة، وذل السؤال.

والفقير يأخذ ما يأخذ من الزكاة حقاً فرضه الشارع له في مال الغني، فيشاركه في عين ماله، ويزول ما في نفسه من الحقد والحسد على الأغنياء، وتسود السعادة، وتفشو المحبة، ويصير المجتمع كالجسد الواحد.

ولو أن أغنياء أمتنا أخرجوا زكاة أموالهم لما بقي في مجتمعنا فقير واحد، ولكان أعظم مجتمع مثالي في تكافله وتعاونه وتعاضده، ولفاض المال، ولما وجدنا ما نجده من مظاهر الفقر والبؤس التي نراها في هذه الأيام.

وحينما طبقت الأمة هذا القانون التكافلي العظيم خرج منادي عمر بن عبد العزيز ينادي في أهل الشام: هل من جائعٍ فنطعمه، هل من عار فنكسوه، هل من أعزب فنزوجه، معددا كل أصناف الحاجة وأصحابها، إلا أنه لم يجد أحداً يتقدم إليه بطلب، وفاض مال الزكاة، مما اضطر عمر إلى نقله لأماكن أخرى في العالم الإسلامي، عساه يجد من يحتاجه.

وهل هذا كل ما في التكافل الاجتماعي، والجواب على هذا: لا، بل هناك صور أخرى كثيرة متعددة لهذا التكافل سنعرض لها في الفقرات القادمة إن شاء الله.

حث الإسلام على الصدقة بأنواعها لقيام التكافل:

ولم تكن الزكاة وحدها وسيلة التكافل الاجتماعي في الإسلام، وإنما كانت الزكاة فريضة من فرائض الإسلام، وركنا من أركانه، لا يصح إسلام المرء إلا إذا أقر بها، وهناك وسائل أخرى كثيرة، لا سبيل إلى حصرها، وكلها يقصد بها شيء واحد، وهو، أن يظهر تكافل المسلمين، وتعاضدهم، وأنهم كالجسد الواحد.

وذلك أن الإسلام حث على الإحسان، وأعظم أنواع الإحسان إحسان الإنسان إلى أخيه الإنسان، فالله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه، والإحسان يكون في كل شيء، من الكلمة الطيبة، والابتسامة، إلى العتق من الرق، والصفح عن الجناية.

قال تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦) ﴾ [النساء: ٣٦].

وأما الآيات الواردة في الحث على الصدقة، فأكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر، وأفضل أنواعها ما كان من أطيب المال، حتى يواسي الغني الفقير بطيب ماله، ويستمتع الفقير بما عند الغني فلا يجد عليه.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وقد كان صلى الله عليه وسلم يحث المسلمين في كل مناسبة على الصدقة، فحثهم على الصدقة لرفع الدرجة، وحثهم عليها لمسح الخطيئة، وحثهم عليها في السلم، كما

حثهم عليها في الحرب، وحثهم عليها في حالة الفقر والشدة فقال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة» كما حثهم عليها في حالة الغنى، وكل ذلك من أجل أن يحس الإنسان بأخيه الإنسان، ولا يبقى في المجتمع ذو حاجة، فهو إن تفاوت أبناؤه في درجات الفقر والغنى، إلا أنهم استووا من حيث الكفاية، وعدم الحاجة، وعند ذلك يكون المجتمع كما صوره النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

فألم الفقير هو ألم للغني، وشقاء الفقير شقاء للغني، والغني حينما يواسي الفقير، إنما يواسي نفسه، فيزيل عنها بزوال البأس عن أخيه، يزيل عنها بأسها.

ولم توجد هذه المعاني السامية إلا في ظل الحضارة الإسلامية، التي ارتقت بالإنسان إلى صف الملائكة، وهو في صورته الإنسانية.

وهل هناك أعظم من أن المرء يعيش في قلق وأرق، وهم ونصب، خشية من أن يكون جاره في بؤس الفقر، وهو في نعيم الغنى، خوفاً على إيمانه من أن يصيبه قوله صلى الله عليه وسلم: «ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم».

بل صار في خلد كل ذي غنى من المسلمين أنه لا يحق له أن يملك شيئاً زائداً عن حاجته، مادام صاحبه المسلم بحاجة إليه.

فقد روى مسلم وغيره عن أبي سعيد الخدري قال: بينما نحن في سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاء رجل على راحلة له، قال: فجعل يضرب يميناً وشمالاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كان معه فضل ظهر ـ أي معه دابة زائدة ـ فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان معه فضل زاد، فليعد به على من لا زاد له».

قال أبو سعيد: فذكر من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في الفضل.

وفوق كل هذا حث الإسلام المسلمين على الإيثار، بأن يعطي الإنسان أخاه عن طيب من نفسه ما كانت نفسه تشتهيه، وتتمنى الوصول إليه، فإذا اشتهى طعاماً نفيساً آثر أخاه به، وإذا اشترى رداءاً جميلاً آثر أخاه به، وإذا أعجبه مركوب أنيق اشتراه لأخيه.

أو تظنون أن هذا مما يمكن أن يعمله البشر؟

أما الإنسان المعاصر في حضارته المعاصرة فإنه يقول: هذا من ضروب الخيال، ولذلك يرى الفقير وهو يجلس في

شرفة قصره، يراه يفتح علبة القمامة ليتناول منها بعض مخلفات الغني، فلا تهتز شعرة في جسده لهذا المظهر، بل يتلف ملايين الأطنان من المواد الغذائية، في البحار، والعالم من حوله يموج بعضه في بعض من الفقر، من أجل أن يحافظ على ارتفاع سعر السلعة، ومن ثم يحافظ على فقرهم وغناه.

وأما المؤمن الذي عاش وترعرع في ظلال حضارة الإسلام فيقول: نعم، هذه هي حضارتنا، وهذا هو شعارنا في الحياة «ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم».

والإيثار الذي نرفع رايته وندعو إليه ليس إيثار الغني الفقير بما يشتهيه وإنما هو إيثار الفقير فقيراً آخر على نفسه مع أنه بحاجة لما يؤثره به على نفسه، قال تعالى مادحاً هذا الصنف من البشر، الذي تزدان بأمثالهم سيرة الإنسان:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

صور من الإيثار في الإسلام:

لقد ذكر لنا التاريخ الإسلامي صوراً من هذا الإيثار في أشد حالات الحرج في عدد من الجرحى الذين تنزف دماؤهم، وكلهم يستغيث بشربة ماء، ويؤتى أولهم بالماء،

فيحوله إلى أخيه ويؤثره به ليس على ماله، بل على حياته، ويؤثر به الثاني ثالثاً، وهكذا إلى أن يصل الساقي إلى الأخير، فيؤثر الأول على نفسه، يرجع الساقي إلى الأول فيجده قد مات، وإلى الثاني فيجده قد مات.

ونظير هذا ما وقع لثلاثة من ذوي الحاجة في ليلة العيد، إذ ذهب الأول فاستدان مبلغاً من المال، ليسد به حاجة أولاده، فأتاه صديق له، يطلب منه شيئاً من المال، ديناً، ليسد حاجة أولاده في العيد، فأعطاه الكيس الذي استدانه دون أن يفتحه، وجاء ثالث بنفس الحاجة، فآثره الثاني أيضاً بنفس الكيس، وذهب الأول إلى الثالث وهو لا يعلم، يطلب منه شيئاً من المال، ديناً، ليسد به حاجته في العيد، فما هاله إلا رؤيته لنفس الكيس الذي دفعه لصديقه الأول، فكان كل واحد من الثلاثة يؤثر صاحبه على نفسه مع حاجة كل منهم إلى المال، في ظرف من أشد الظروف حرجاً، وهو مقدم العيد..

وأمثال هذه القصص في تاريخ حضارتنا الإسلامية كثير، ويتكرر في كل عصر، وأنا لا أريد أن أقول إنه ظاهرة الأمة، ولكني أريد أن أقول إنه من تعاليم دينها وحضارتها، وصورة من أروع صور التكافل بين أبنائها.

ولم تقتصر حضارتنا الإسلامية على بذل الإنسان لأخيه الإنسان في حياته، بل ندبه إلى تعدية البذل إلى ما بعد مماته، فجعل من الصدقات ما يستمر أجره إلى ما بعد الموت، كما يستمر نفعه للمحتاجين إليه، ربما لأجيال متتابعة.

روى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاَّ من ثلاث، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

الوقف وأثره في التكافل الاجتماعي في الإسلام:

ومن جملة الصدقات الجارية التي حث الإسلام عليها، وندب المسلمين إليها هي الوقف، وهو من أهم المصادر التي ساهمت في ارتفاق المجتمع في الحضارة الإسلامية.

فقد تنافس المسلمون في الوقف تنافساً عجيباً، وتفننوا في طرقه وأساليبه، وكل منهم يريد أن يرصد جزءاً من ماله، لضمان حضارة مجتمعه، وسد حاجة إخوانه، حتى صارت الأوقاف في البلاد الإسلامية لا تعد في كثرتها، ولا تحصى في أنواعها، ولو أنني أردت أن أعدد أنواعها وأشرحه، لذكرت ما يثير العجب، ولاحتجت للعديد من المجلدات، فمن ذلك:

١ ـ الأوقاف على المساجد، على عمارتها، وترميمها، وفرشها، وإضاءتها، وتأمين المياه فيها، وأجرة إمامها، ومؤذنها، وخادمها، وغير ذلك مما تحتاج إليه من النفقات لبقائها، والاستمرار في عملها.

٢ ـ الأوقاف على المدارس: والجامعات، ودور العلم، من مراحلها الابتدائية، إلى آخر مراحلها التخصصية، وفي كل ما تحتاجه من البناء، والصيانة، والترميم، والكتب، ورواتب المدرسين، ورواتب الطلاب، فكل طلاب العلم كانوا يأخذون مرتباً من الأوقاف الخاصة بهم.

٣ ـ الأوقاف الخاصة بأنواع خاصة من العلوم، كالأوقاف على الفقهاء، أو الأصوليين، أو المحدثين، أو المفسرين، أو اللغويين، أو الأطباء، أو الصيادلة أو غير ذلك من فنون العلم التي كانت شائعة في العالم، لاسيما مما يحتاج إليه الإنسان في حياته أكثر من غيره.

وكل من كان له وقف ممن ذكرنا كان يأخذ حصته مما وقف عليه دون مَنٍّ، أو حرج، أو استحياء، لأنه كان يأخذ حقاً له، وليس صدقة يتصدق بها عليه.

٤ ـ الأوقاف على الخدم، وهي أوقاف خاصة رصدت لرفع ما قد يلحق الخادم من مخدومه من الأذى، فيما إذا أتلف شيئاً بين يديه، فإنه في هذه الحالة يذهب إلى ناظر الوقف،

ويأخذ ثمن الشيء الذي أتلفه، ليشتري به مثل ما أتلف، ويكون في مأمن من العقاب الذي قد يلحقه من سيده أو مخدومه.

٥ ـ ومن الأوقاف التي كانت في بلاد الشام وغيرها من البلاد ذواتِ الأنهار الوقف على الأنهار، لصيانتها، وتنظيفها، وبنائها، وضمان تدفق المياه فيها.

والأوقاف على الآبار لحفرها، وإخراج الماء منها.

٦ ـ ومن الأوقاف التي شاعات في العالم الإسلامي كله الأوقاف على تسبيل مياه الشرب في الشوارع والطرق العامة، وهي من أرقى مظاهر الحضارة الإسلامية في المدن والقرى، فأنى أدرك الإنسان العطشُ وجد حاجته من ماء الشرب، ومازال هذا النوع من الأوقاف القديمة ماثلاً إلى اليوم في كثير من المدن الإسلامية، وأضيفت إليه الأوقاف الحديثة التي هي في معناه، ونسأل الله أن لا تزول.

ولن أستطيع ـ كما ذكرت سابقاً ـ أن أعدد أنواع الأوقاف ومظاهرها في هذه الرسالة الموجزة، إلا أن فيما ذكرناه ما يكفي لإعطاء صورة عن الحضارة الإسلامية في تكافلها الاجتماعي.

وهذا النوع من التكافل المتمثل في الوقف لم يكن مقصوراً على الإنسان، بل تجاوزه إلى الحيوان على ما سيأتي ذكره إن شاء الله.

افتخار الحضارة المادية المعاصرة برعاية الحيوان:

لقد فخرت الحضارة المادية المعاصرة بأنها أوجدت جماعات لرعاية الحيوانات والدفاع عنها، ومراكز لرعاية القطط الضالة، والكلاب الشاردة، وغير ذلك من الحيوانات.

وقد احتفلت إيطاليا منذ عدة شهور بافتتاح أول مستشفى للكلاب، وقد انتشر نبأ هذا المشفى حتى بثته كل وسائل الإعلام.

كما أنه تطالعنا وكالات الأنباء العالمية بين الحين والآخر ببعض الأنباء عن أناس وقفوا بعض أو كل ثروتهم على كلابهم أو قططهم.

ولاشك أن رعاية الحيوان الضال، أو الشارد، أو العاجز، من مظاهر الحضارة الإنسانية، ولاشك أن الحيوان بحاجة لجمعيات للرفق به، أمام ظلم الإنسان واضطهاده.

تناقض المنهج عند أدعياء الحضارة:

إلا أن العجيب في أولئك المتحضرين أنهم يوقف بعضهم المئآت أو الآلاف بل الملايين من الدولارات على الكلاب، أو كلبهم المدلل، إلا أنهم يضنون بالدولار الواحد على فقير

معدم يكاد يموت جوعاً، فهم ينفقون أو يوقفون تلك الملايين على الكلاب، ولكنهم يعاملون مئات الملايين من أبناء القارة الأفريقية أو الآسيوية، أو غيرهما من أبناء شعوب العالم الذي يسمونه تواضعاً منهم بالثالث، بأقسى ما يمكن أن يعامل به المخلوق، فلا تأخذهم بهم شفقة ولا رحمة، وربما كانت تلك الملايين التي يملكونها من نهب ثروات أولئك المستضعفين؟ وهذا تناقض في المنهج في معيار كل عقل في الدنيا، وهو الذي سيؤدي يوماً ما إلى تلك الحضارة.

وقد حفلت حضارتنا الإسلامية العظيمة - كما ذكرت فيما مر - بأنواع كثيرة من الوقف شملت جميع جوانب الحياة، وحاجات الإنسان في الحياة، وبعد الممات، من الكفن، والتغسيل، وحفر القبر، ودفن الميت، وغير ذلك من حاجته، وإلى جانب الأوقاف العامة التي كانت ترعاها الدولة لتنفيذها بشروط واقفها، كانت توجد أوقاف خاصة يرعاها الورثة من كل جيل.

وإلى جانب هذه الأوقاف التي رعت الإنسان في جميع جوانب ما يحتاجه في الحياة؛ كانت توجد الأوقاف التي تعتني بالحيوان وحاجته.

فمنذ أربعة عشر قرناً عرف المسلمون الأوقاف على الحيوانات واحتياجاتها، فمن ذلك:

١ ـ الأوقاف على الطيور وطعامها، والحمام الذي أدركه معظمنا في الحرمين الشريفين، والذي نجده في كثير من مساجد العالم الإسلامي اليوم له أوقاف خاصة بطعامه.

٢ ـ ومن ذلك الأوقاف على الخيول، والبغال، والحمير، وغيرها من الدواب التي لا صاحب لها، أو أدركها العجز فاستغني عنها، أو أصابها المرض فلم تعد يستفاد منها، فإن الحضارة المادية المعاصرة تقتلها، وأما حضارتنا الإسلامية العظيمة فإنها تمنع قتلها مادامت لا يوجد ضرر منها، بل جعلت لها أوقافاً، تعيش فيها، وتأكل منها، إلى أن تأتي منيتها.

وأول ملعب لكرة القدم في دمشق، وهو المسمى بالملعب البلدي، على ضفاف نهر بردى كان، وقفاً على خيول المسلمين في دمشق، فإذا ما أصيب الحصان، أو اعتراه بعض ما ذكرنا مما يجعل صاحبه يستغني عنه، فإنه يؤخذ إلى ذلك المكان الذي كان مرجاً خصيباً، فيأكل منه، ويعيش فيه إلى أن يموت.

٣ ـ ومن الأوقاف على الحيوانات الأوقاف المختلفة على القطط، إما لرعايتها وإما لطعامها.

سبق الحضارة الإسلامية الحضارة المادية المعاصرة بقرون:

ولئن عرفت الحضارة المادية المعاصرة الوقف على الحيوان منذ عشرات السنين، فبدأت برعايتها والعناية بها، فقد عرفته حضارتنا الإسلامية منذ أربعة عشر قرناً، حينما كان الإنسان لا يجد من يرعاه، في العالم الذي لم تستطع عليه شمس الإسلام.

والرفق بالحيوان من الشعائر العامة لديننا الإسلامي الحنيف، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

ومازال يعلمنا الرفق بكل شيء حتى جعل من الرفق بالحيوان ما يدخل الجنة.

قال صلى الله عليه وسلم: «بينما رجل يمشي بطريق إذا اشتد عليه العطش، فوجد بئراً، فنزل فيها، فشرب، ثم خرج، فإذا بكلب يلهث يمص الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر، فملأ خفه بالماء، ثم أمسكه بفيه، حتى خرج من البئر، فسقى الكلب، فشكر الله صنيعه، فغفر له، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجراً؟ قال: «في كل ذات كبد رطبة أجر».

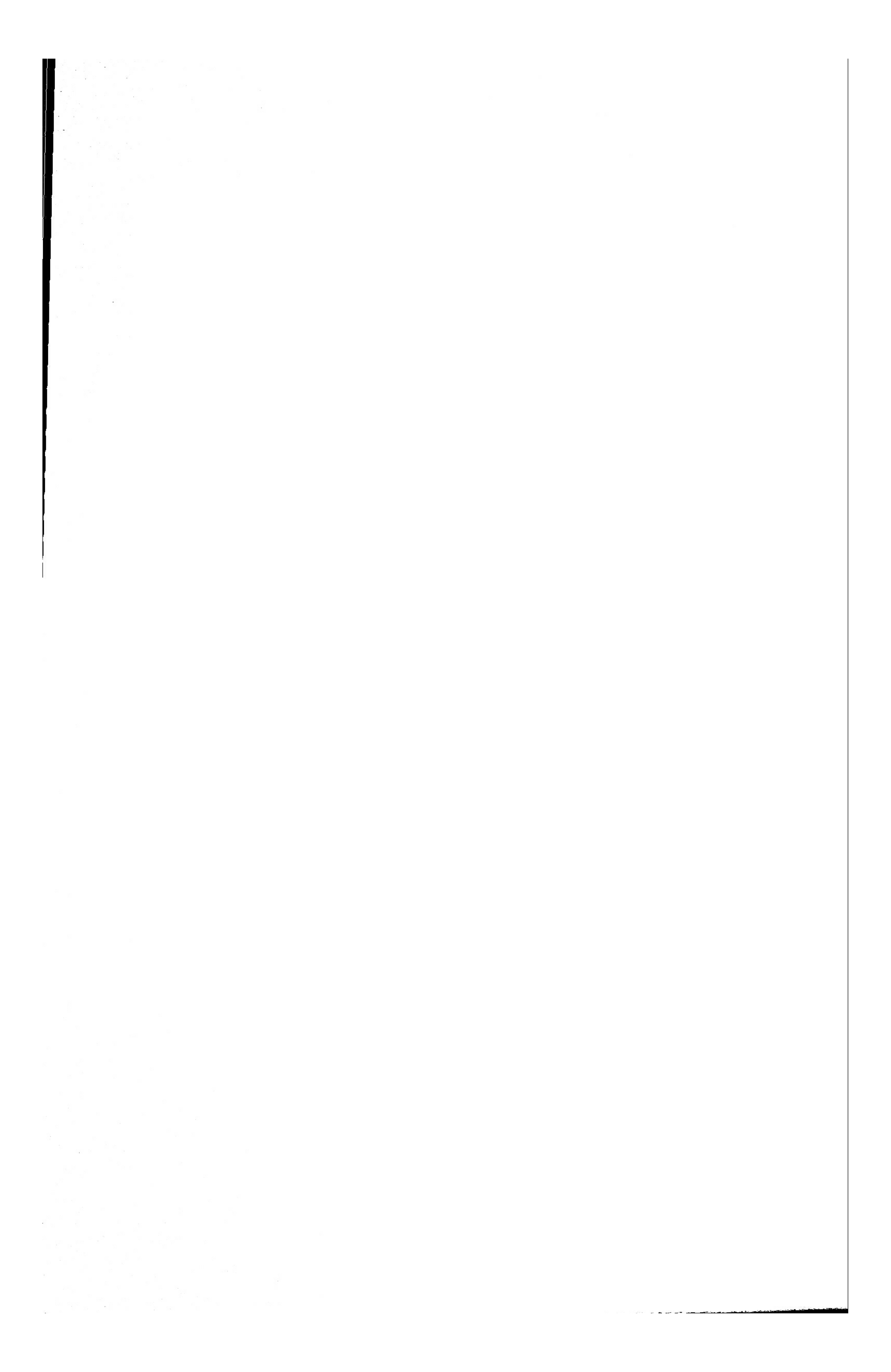
كما علمنا صلى الله عليه وسلم : أن القسوة والظلم من الخلق المذموم، الذي يؤدي إلى النار، فقال: «دخلت امرأة النار في هرة حبستها، فلا هي أطعمتها، ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض».

وبهذه الأخلاق السامية، والمعاملة الإنسانية الراقية، التي تجاوزت علاقة الإنسان بالإنسان إلى علاقة الإنسان بالحيوان، وارتقت بالإنسان من حضيض الحيوانية المتوحشة، إلى يفاع الملائكية الراقية، بهذه الأخلاق والمعاملة؛ استطاعت أمتنا أن ترسم أجمل صورة للحضارة الإنسانية في جميع جوانب الحياة.

وبعد: أفلا يحق لكل مسلم في الدنيا أن يقول: نحن رواد الحضارة الاجتماعية في العالم..؟

بلى... ووقائع التاريخ بذلك ناطقة، وعلى صدقها شاهدة.

* * *



الحضارة الإسلامية
في
جانبها العلمي

إن من البديهي عند كل مسلم أن الإسلام عني عناية خاصة بالعلم، والعلماء، وأول آية من آيات القرآن نزولاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت بالعلم، وأرشدت إليه في قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: «اقرأ».

ومن ثم كان طلب العلم فريضة في الإسلام على كل مسلم، بل زاد الأمر على ذلك، فقال صلى الله عليه وسلم: «ليس مني إلا عالم أو متعلم».

مكانة العلماء في الإسلام:

وأعطى الإسلام العلماء مرتبة لم يعطها لغيرهم، فمن ذلك:

١ـ أنه ميزهم عن العامة، فرفع درجتهم، وفضلهم عليهم فقال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١].

٢- جعل شهادتهم تلي شهادة الله والملائكة في الدلالة على وحدانيته، فقال جل شأنه: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ ﴾ [آل عمران: ١٨].

٣- جعل العلماء ورثة الأنبياء، والعلماء لم يورثوا مالاً، وإنما ورثوا العلم، فالعالم في الإسلام امتداد لظلال النبوة، ولا شرف فوق شرف الوراثة، ولا رتبة فوق رتبة النبوة.

٤- حصر خشية الله، ومعرفته فيهم فقال: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ ﴾ [فاطر: ٢٨].

٥ - جعل موت قبيلة بأسرها أيسر من موت عالم.

إلى جانب فضائل كثيرة، ومزايا متعددة، لو أردت الإسهاب في ذكرها لملأت المئات من الصفحات، وهي لا تخفى عمن له أدنى إطلاع على كتاب الله، أو سنة رسول الله.

ولذلك أقبل الناس على العلم، وتهافتوا على المعرفة، واندفعوا في سبيلهما بكل ما لديهم من طاقة، وعندهم من إمكانية، واستطاعوا خلال فترة زمنية وجيزة وقياسية في تاريخ العلوم أن يكونوا أعظم حضارة علمية عرفتها البشرية في تاريخها الطويل.

وانقلبت المساجد إلى مدارس فهي جانب كونها أماكن للصلاة والعبادة، كانت المدارس التي يتحلق الناس فيها لتلقي العلوم.

ثم انشئت المدارس، والأماكن المخصصة للتعليم، والجامعات، وانتشرت في كل بقاع العالم الإسلامي.

وصار من أكبر اهتمامات الخلفاء، والأمراء، والأغنياء إنشاء المدارس والجامعات لنشر العلوم واحتواء العلماء، بل صار من أهم ما يتفاخر به الأمراء في مقاطعاتهم التي تخضع لسلطانهم هو ما يوجد في هذه المقاطعة من دور العلم، ومشاهير العلماء، والشعراء، والأدباء، والمفكرين.

وكانوا إلى جانب هذا يوقفون الأوقاف الهائلة من أجل صيانة المدرسة، وتمويلها، ودفع المرتبات للعاملين فيها، وللعلماء، والمتعلمين، وقد كانت المرتبات التي تدفع للمعلمين والطلاب كفيلة في أكثر الأحيان بأن يعيشوا حياة جيدة.

وقد هال ابن جبير الرحالة الأندلسي ما رآه في المشرق من كثرة المدارس والأوقاف التي كانت توقف عليها، فدعا المغاربة أن يرحلوا إلى المشرق لمشاهدة هذا الرقي العلمي، فقال في رحلته: تكثر الأوقاف على طلاب العلم في البلاد المشرقية كلها، وبخاصة دمشق، فمن شاء الفلاح من أبناء

مغربنا فليرحل إلى هذا البلد ليجدَ الأمور المعينة على طلاب العلم كثيرة، وأولها فراغ البال من أمر المعيشة اهـ.

وعندما تقلد الوزير السلجوقي نظام الدين الطوسي الوزارة؛ جعل أكبر اهتماماته بناءَ المدارس والجامعات التي عرفت باسمه، كنظامية بغداد، ونظامية نيسابور، وغيرهما من النظاميات، حتى ملأ بلاد العراق وخراسان بها، وقل ما كنت تسمع بمدينة أو قرية كبيرة إلا وفيها نظامية قد بناها فيها، بل تجاوز الأمر ذلك إلى القرى الصغيرة فبنى فيها المدارس.

وكان كلما سمع بعالم من العلماء في بلد ما بنى له مدرسة، ووقف عليها أوقافاً، ورتبه مدرساً فيها.

وكان إذا سمع بعالم يتطلع إلى نظامية قد بنيت لغيره، أمر ببناء نظامية أخرى خاصة به، إن كان أهلاً لذلك، حتى لا يتنافس العلماء من أجل الوصول إلى العمل في النظاميات.

الحضارة الإسلامية هي نواة الحضارة المادية المعاصرة:

وهكذا استطاع المسلمون وفي فترة وجيزة ـ كما ذكرت ـ أن يبنوا صرح أعظم حضارة علمية كانت النواة الأولى للحضارة العلمية المعاصرة، على ما سنبينه بالتفصيل.

مصادر الحضارة الإسلامية ومناهجها:

وهذه الحضارة العلمية التي أقامها المسلمون في المجتمع الإسلامي، لم تكن كلها وليدة عقولهم، بل كان بعضها مما تعلموه من الحضارات العلمية السابقة، التي كانت في الأمم التي كانت قبلهم، من اليونانيين، والرومان، والفرس، والهنود، وغيرهم من الأمم السابقة.

وبعضها قام العرب بتطويره بعد أن تعلموه وأتقنوه، فارتقوا به إلى ذروته.

وبعضها كان من ابتكارهم، واختراعهم أو اكتشافهم، من خلال مناهجهم العلمية، النظرية والتجريبية.

فأوجدوا العديد من العلوم التي تدين الحضارة المادية المعاصرة لها.

شهادة عباقرة العلوم المعاصرون لحضارتنا العلمية:

وهذا الذي أقوله عن حضارتنا ليس ضرباً من خيال، أو جموحاً بعاطفة، وإنما هو الحقيقة التي يعترف بها أعداؤها كما يعرفها أصدقاؤها، وإن كانت قد غمرت، وهضم حقها في خضم التيارات الفكرية المعادية للإسلام والمسلمين، والتي صارت اليوم في مكان القيادة الفكرية في العالم المعاصر.

شهادة البروفيسور درابر للحضارة العلمية في الإسلام:

يقول البروفيسور درابر الأستاذ بجامعة نيويورك في كتابه «المنازعة بين العلم والدين» لقد ذاق العرب في الفنون الأدبية كل ما من شأنه أن يحد القريحة، ويصقل الذهن، وقد افتخروا فيما بعد بأنهم أنجبوا من الشعراء بقدر ما أنجبت منهم الأمم كلها.

أما في العلوم فقد كان تفوقهم ناشئاً من الأسلوب الذي توخوه في المباحث، وهو الأسلوب التجريبي الحسي.

وقد كانوا يعتبرون الهندسة، والعلوم الرياضية، أدوات ومعدات لعلم المنطق.

وقد يلاحظ المطالع لكتبهم العديدة في الميكانيكا، وعلم موازنة السوائل، وضغطها على جدران أوعيتها، ونظريات الضوء والإبصار، بأنهم قدا اهتدوا إلى حلول مسائلها من طريق التجربة والنظر، بواسطة الآلات.

قال: وهذا هو الذي قاد العرب لأن يكونوا أول الواضعين لعلم الكيمياء، والمتكشفين لجملة آلات التقطير، والتصعيد، والإسالة، والتصفية.

وهذا بعينه هو الذي جعلهم يستعملون في أبحاثهم الفلكية الآلات المدرجة، والسطوح المعلمة، والاسطرلاب.

وهو الذي بعثهم لاستخدام الميزان في العلوم الكيمياوية، وأرشدهم لعمل الجداول عن الأوزان النوعية للأجسام، والأزياج (وهي جداول تعرف منها حركات الكواكب، كالتي كانت في بغداد، وقرطبة، وسمرقند).

وهو الذي أوجب لهم أيضاً الترقي الباهر في الهندسة، وحساب المثلثات، واكتشف علم الجبر.

ولقد دأبوا على جمع الكتب حتى إن مكتبة القاهرة كان بها نحو مائة ألف كتاب معتنى بكتابتها وتجليدها، من بينها ستة آلاف وخمسمائة مجلد في الطب والفلك فقط.

وكان بها كرتان أرضيتان، إحداهما من الفضة، والأخرى من البرونز.

قال: وقد اشتملت مكتبة خلفاء الأندلس فيما بعد على ستمائة ألف مجلد، وكان في الأندلس سبعون مكتبة عامة، وكثير من المكتبات الخاصة.

وقد كانت كتب المسلمين الزاخرة بالمعلومات كثيرة جداً في الجغرافيا، والإحصاءات، والطب، والتاريخ، وقواميس اللغة.

قال: وكانت لهم دائرة معارف علمية، وكان لهم ذوق خاص دقيق في صناعة الورق النظيف الناصع البياض، وفي

إعطاء الحبر الألوان المختلفة، وكانت المملكة الإسلامية مملوءة بالمدارس والكليات.

قال درابر : ولقد اتبعت المدارس الطبية عامة مثالَ مدرسة الطب في القاهرة، في اختبار الطلبة قبل تخرجهم، بحيث لا يستطيع أحدهم أن يشتغل بمهنة الطب إلا بهذا الشرط.

وأول مدرسة أنشئت من هذا القبيل في أوروبا هي التي أسسها العرب في سالرن في إيطاليا، وأول مرصد أقيم فيها هو ما أقامه المسلمون في إشبيليا في الأندلس.

قال : ولو أردنا أن نستقصي كل نتائج هذه الحركة العلمية العظمى، لخرجنا عن حدود هذا الكتاب، فإن المسلمين قد رقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جداً، وأوجدوا علوماً أخرى لم تكن من قبلهم.

ثم تكلم على براعتهم في العلوم الرياضية، وعلى التسهيلات التي أدخلوها عليها، وعلى تفوقهم في حساب المثلثات، والعلوم الفلكية، وما ألفوه فيها من الكتب، وما عملوه في الفلك من الجداول والتقاويم.

ثم قال، واهتم الفلكيون العرب بتحسين آلات الأرصاد وتهذيبها، وبحساب الأزمنة بالساعات المختلفة الأشكال،

والساعات المائية، والسطوح المدرجة الشمسية، وهم أو من اخترع البندول ـ الرقاص ـ واستعمل في الساعات لهذا الغرض.

أما في العلوم التجريبية فقد اكتشفوا علم الكيمياء، وبعضاً من محللاتها الشهيرة مثل حمض الكبريت، وحمض النتريك، والكحول.

واستخدموا الكيمياء في الطب، لأنهم أول من نشر علم تحضير العلاجات، واستخراج الجواهر المعدنية.

أما في علم الميكانيكا فإنهم عرفوا وحددوا قانون سقوط الأجسام، وكانوا عارفين تماماً بعلم الحركة، وكانوا أول من عمل الجداول المبينة للأوزان النوعية، وكتبوا أبحاثاً عن الأجسام السابحة والغائصة تحت الماء.

أما في نظريات الضوء والإبصار فقد غيروا الفرض اليوناني الذي مقتضاه أن الإبصار يحصل بوصول الشعاع من البصر إلى الجسم المرئي، وقالوا بعكس ذلك: أي أن الإبصار يحصل بوصول الشعاع من الجسم المرئي إلى البصر.

وكانوا يعرفون نظريات انعكاسات الأشعة وانكساراتها، وقد اكتشف الحسن بن الهيثم الشكل المنحنى الذي يأخذه الشعاع في سيره في الجو، وأثبت بذلك أننا نرى القمر

والشمس قبل أن يظهرا حقيقة في الأفق، وكذلك في الغروب نراهما قليلاً بعد أن يغيبا.

ثم استطرد درابر فتكلم على المدنية الإسلامية فقال: كانت قرطبة تتألف من مئة ألف بيت، ويسكنها مليون إنسان، ويكفي أن تعرف أن شارعها الأكبر كان بطول عشرة أميال، ويضاء ليلاً للمارة بمصابيح كبيرة، وذلك مشهد من مشاهد الحضارة لم تعرفه مدينة لندن إلاَّ بعد ذلك العهد بسبعمائة عام، وكانت طرقها مرصوفة بالأشجار، في حين أن باريس ظلت قروناً بعد حضارة العرب في الأندلس بركاً للمياه والأوحال التي تغوص فيها الأرجل للركب في الشتاء.

ولم يقتصر الأمر على قرطبة، بل إن غرناطة، وإشبيليا، وطليطلة، كانت كقرطبة. وكانت قصور الأمراء مثلاً من الفخامة الشرقية، بل متاحف للفنون الرفيعة، وعنواناً على حضارة عريقة، في حين أن المنازل التي سكنها أمراء ألمانيا، وفرنسا، وإنجلترا، لم تكن تفضل حظائر الماشية في شيء، فهي بلا مداخن ولا نوافذ، وقد كان المخرج الوحيد الذي يسلم إلى فضاء الجو كوةً من أعلى السقف التي يتصرف منها الدخان.

قال : ومن الأسف أن الأدب الأوروبي حاول أن ينسينا واجبنا العلمي نحو المسلمين فقد حان الوقت الذي ينبغي لنا أن نعرفهم، وإن قلة الإنصاف المبنية على الأحقاد والعنجهية القومية؛ لا تدوم أبد الدهر اهـ.

وهذا الذي قاله درابر عن الحضارة الإسلامية إنصاف يشكر عليه، وليس هو وحده الذي قال هذا من مؤرخي الغرب، فهناك كثيرون ممن قال مثل ما قال.

شهادة جوستان لوبون:

وإليك ما ذكره جوستان لوبون في كتابه «حضارة العرب»، قال:

إذا رجعنا إلى القرن التاسع والعاشر من الميلاد، حين كانت الحضارة الإسلامية في إسبانيا ساطعة جداً، رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب؛ كانت أبراجاً يسكنها سينورات متوحشون، يفخرون بأنهم لا يقرأون، وإن أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا من الرهبان المساكين الجاهلين، الذين يقضون أوقاتهم في أديارهم ليكشطوا كتب الأقدمين بخشوع، وذلك كيما يكون عندهم من الرقوق ما هو ضروري لنسخ كتب العبادة.

قال: ودامت همجية أوروبا زمناً طويلاً، من غير أن تشعر بها، ولم يبد في أوروبا بعض الميل إلى العلم إلا في القرن الحادي عشر والثاني عشر من الميلاد، وذلك حينما ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم، فولوا وجوههم شطر العرب الذين كانوا أئمة وحدهم.

ثم قال: والعرب مع ولوعهم بالأبحاث النظرية لم يهملوا تطبيقها على الصنائع، فقد أكسبت علومهم الصنائع جودة عالية جداً، وإننا وإن كنا لم نزل نجهل أكثر الطرق التي سلكوها في ذلك إلا أننا نعرف نتائجها وآثارها.

فنعرف مثلاً أنهم احتفروا المناجم، واستخرجوا منها الكبريت، والنحاس، والزئبق، والحديد، والذهب، وبرعوا في صناعة الصباغة، ومهروا في سقي الفولاذ بمهارة بعيدة المدى، وكان لمنسوجاتهم، وأسلحتهم، ومدبوغاتهم من الجلود، ولورقهم؛ شهرةً عالمية.

وبرعوا في كثير من الصنائع، ولم يلحق لهم شأو فيها حتى الآن.

ومن بين المكتشفات المعزوة للعرب أشياء ذات شأن كبير، كالبارود مثلاً اهـ.

وقد استطرد لوبون في كلامه على الحضارة الإسلامية وأثرها في الحضارة العالمية فليرجع إليه من شاء، فقد ألفه لهذا الغرض.

شهادة تراند:

وقال تراند في مقالة بعنوان «إسبانيا والبرتغال»: من اليقين أنه بينما كانت أغلب أوروبا ترزح تحت نير الشقاء والفساد، مادياً وروحياً، أقام المسلمون في الأندلس حضارة زاهرة لعبوا فيها دوراً حاسماً في تطوير الفن، والعلم، والفلسفة، والشعر، وأثرت حتى في أرفع أعلام الفكر النصراني للقرن الثالث عشر فكانت إسبانيا الإسلامية مشعل أوروبا.

ثم قال: ولم يدخل العلم أوروبا إبان الحروب الصليبية كما هو شائع، بل دخله بواسطة الأندلس، وصقلية، وإيطاليا، وعَرَفَ الغربُ بترجمة كتب العرب عالماً جديداً.

شهادة لكلرك:

وقد عدد «لكلرك» في تاريخ الطب العربي ثلاثمائة كتاب نقلها العربُ من اللاتينية إلى العربية، وما عرفت القرون الوسطى المدنية إلا بعد أن سرت إليها من أشياع محمد صلى الله عليه وسلم.

قال : وبعض هذه الترجمات لكتب القدماء التي فقدت أصولها حفظت هذه الأسفار من الضياع، فوصلت إلى العرب وحدهم ـ لا رهبان القرون الوسطى ممن كانوا يجهلون حتى اللغة اليونانية ـ فيرجع الفضل في معرفة هذه الكتب إلى العرب وحدهم، والعالم مدين لهم على مر التاريخ لإنقاذ هذا الكنز الثمين.

ثم قال : كلما تعمق المرء في دراسة المدنية العربية الإسلامية تجلت له أمور جديدة واتسعت أمامه الآفاق، وإن جامعات الغرب عاشت خمسمائة سنة تكتب للعرب خاصة، وإن العرب هم الذين مدنوا أوروبا في المادة، والعقل، والخلق، وإن العرب المسلمين أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين.

قال : ويرى بعضهم أنه من العار أن تكون أوروبا مدينة في خروجها من الهمجية للمسلمين ولكن من الصعب أن يحجب مثل هذا العار الوهمي وجه الحقائق اهـ.

شهادة الدكتور لويجي رينالدي:

ومن قبيل هذه الشهادات المنصفة ما قاله د. لويجي رينالدي فإنه قال في سياق كلامه على الحضارة الإسلامية، لقد اجتاح العالم العربي حوالي سنة ألف ميلادية غزوٌ

إسلامي جديد، كالسيل الجارف، ولم يكن أي حاجز يقوى على صده، ذلك الغزو الذي يحمل التهذيب العربي، والمدنية الإسلامية، فإن شعب الصحراء العظيم ظهر على وجه الأرض بعد سقوط المدنيتين: الرومانية، واليونانية، واندثار معالمهما، وبذلك قام العرب في ظلمات بربرية القرون الوسطى بإعادة نور الحضارة والمدنية الذي كان قد انطفأ في جميع بلاد الغرب والشرق حتى القسطنطينية.

قال: ولست أدري لماذا لا نسمع كلمة إعجاب بالشعب العربي العظيم، الذي ترك في طريق المدنية آثاراً عديدة، والذي حمل معه أعظم المساعدات، وأجل الخدمات للنوع الإنساني، فيجب أن لا نبخل على العرب بإعطائهم المقام اللائق.

وقد يحزنني، ويحزن غيري أن يكون بيننا نحن الأوروبيين نفر يقودهم سوء الظن والجهل إلى احتقار العرب، وحسبانهم أمة أدنى من أممهم، وأن نرى كلمة عربي عندنا تدل على معنى غير معنى التمدن، فإن هذا الشعب لا يزال يحفظ صفاته العجيبةَ، وذكاءه النادر اهـ.

شهادة سيديو:

ويقول ل. ا. سيديو : كان العرب والمسلمون وحدهم ممثلي الحضارة في القرون الوسطى فدحروا توحش أوروبا التي زلزلتها غارات أمم الشمال، ولم يشتعل النور في أوروبا ثانية إلا بعد ثمانية قرون.

قال : ويظهر أن قصد نسيان العرب، وإنكار ما لديهم من تأثير في الحضارة الحديثة قد ولى، فقد حان الوقت الذي توجه فيه الأنظار إلى تاريخ تلك الأمة التي كانت مجهولة، ثم ارتفعت إلى أعلى مقام، فطبق اسمها آفاق الدنيا مدة سبعة قرون.

إن العرب المسلمين كانوا أساتذة أوروبا كلها في جميع فروع العلم والمعرفة، ونحن مدينون للعرب في الحقل العلمي، ونعترف بأن قومنا كانوا يتلهون بتشويه ما يقتبسونه من التعابير تشويهاً غريباً إلى الغاية اهـ.

شهادة دالماس:

ويقول البروفيسور دالماس عميد كلية الطب في جامعة ونبليه: عندما أراد أهل مونبليه في أوائل القرن الثاني عشر نشاء جامعتهم وجدوا أنه ليس في مدينتهم الأساتذة العلماء

ذوو الكفاءة اللازمة لإنشاء الجامعة، ففكروا في الاستعانة بجامعات أخرى لهذه الغاية، فنظروا إلى باريس، فرأوا أنها ليست أحسن حالاً منهم، ثم فكروا في روما، فكانت كذلك، وأما إنكلترا وألمانيا فكانتا لا تزالان في الأشواط الأولى في العلم والثقافة، وبعد بحث قرروا أنه لا مناص من طلب تلك المساعدة الفنية من البلد الوحيد الذي يستطيع أن يمدهم بالأساتذة والخبراء والأكفاء، وهو الدولة العربية في الأندلس، فاتصلوا بها، وعرضوا عليها وضعهم، فلبت الحكومة العربية طلبهم، وأرسلت إلى مونبليه ثلاثة من كبار الأساتذة المشهورين بالطب، والعلوم، والفلسفة، فنظموا الجامعة، وألقوا المحاضرات خلال ثلاث سنوات، ثم انصرفوا بعد أن عرفوا أن في إمكان الأساتذة الفرنسيين الذين تعلموا منهم الاستمرار في عملهم.

شهادة دوزي:

ويقول المستشرق الهولندي دوزي: إنه في الوقت الذي لم يكن يوجد فيه أمي في الأندلس؛ كان لا يعرف القراءة والكتابة في أوروبا معرفة أولية إلا الطبقة العليا من القسس اهـ.

المكتبات الإسلامية والأوروبية:

ويضاف إلى هذا الذي ذكرناه من شهادة مؤرخي الغرب للحضارة الإسلامية أنه في الوقت الذي كانت تحتوي فيه المكتبة الإسلامية الرئيسية في الأندلس عام ٣٥٠ هـ ـ ٩٦١م على نصف مليون كتاب، كانت تنسخ باليد لم يكن في أوروبا كلها بعد أي مكتبة.

بل إن أكبر مكتبة في أوروبا كانت مكتبة كنيسة كانتربري، في مقاطعة كنت، جنوب شرقي إنجلترا؛ كانت تحتوي في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، أي بعد التاريخ الذي ذكرناه عن مكتبة الأندلس بأربعمائة سنة؛ كانت تحتوي على ١٨٠٠ مجلد فقط.

وقبل أن أختم كلامي في نقل شهادة مؤرخي الغرب على الحضارة الإسلامية: إليك كلمة شركة الطيران الألمانية التي توزع الآن، في السفارات الألمانية عن الطب العربي، قالت النشرة: كان الطب في العصور القديمة مرتبطاً بالفلسفة ارتباطاً كاملاً، فكان الطبيب فيلسوفاً، وكثير من الفلاسفة أطباء، ثم جاء العرب فبحثوا علوم الإغريق جذرياً، وأدمجوها في علوم بلادهم، وعلوم مراكز الحضارة في آسيا، وكان العلم آنذاك مفقوداً في بلاد الغرب التي عم فيها الضلال، وانتشرت فيها المعتقدات الزائفة.

قالت: وطالب علماء الطب العرب في السنة الألف بعد الميلاد تقريباً بفصل الطب عن الفلسفة، حتى يصير علماً يعتمد على الممارسة والتطبيق، لا على الفلسفة وحدها.

وفي الوقت الذي كانت فيه في بغداد وقرطبة - على سبيل المثال - مستشفيات جيدة التجهيز، ومحكمة التنظيم، فقدت في الغرب الخدمات الطبية، والأبحاث العليمة، أو كادت، ولم يصل علم الأطباء العرب إلى الغرب إلا في القرون الوسطى، ثم لم يكن في جامعة باريس قبل ستة قرون إلا كتابٌ واحد في الطب، كان بطبيعة الحال كتاباً عربياً، وبالقياس إلى ذلك فقد ألف العلامة الشهير أبو بكرز الرازي المتوفى سنة ٩٣٢ هـ مرجعاً طبياً يشتمل على ٢٣ مجلداً، ثم أتى بعده ابن سينا فتبحر في الطب، وشاع ذكره في المشرق والمغرب، ومن مؤلفاته كتاب وصف فيه أكثر من ٧٦٠ دواء وعشباً طبياً، ظل حتى القرن السابع عشر المرجع الأساسي المعتمد في الجامعات الألمانية.

ثم قالت النشرة: ونحن اليوم حينما نذكر إنجازات الطب الحديث في البلاد الغربية، وجودة الخدمات الطبية في ألمانيا؛ واعون تمام الوعي أن هذا التقدم وهذه الإنجازات ما كان لها أن تتحقق لولا فضل الأطباء العرب القدماء، وأعمالهم الرائدة اهـ.

كما يسعدني أخيراً أن أقدم هـذه الرسـالة لمـن جهلـوا تاريخ أمتهم العظيمة وحـضارتها، وفتنـوا بحـضارة عـدوهم الزائفة.

* * *

هكذا كنا فمتى نعود؟

إلى صاحب العظمة - خليفة المسلمين - هشام الثالث الجليل المقام...

من جورج الثاني ملك انكلترا، والسويد، والنرويج، إلى الخليفة ملك المسلمين في مملكة الأندلس صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام...

بعد التعظيم والتوقير نفيدكم أننا سمعنا عن الرُّقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة... فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج من هذه الفضائل، لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم.

لنشر أنوار العلم في بلادنا، التي يحيط بها الجهل من أركانها الأربعة، وقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة (دوبانت) على رأس بعثة من بنات الأشراف الإنكليز، لتتشرف بلثم أهداب العرش، والتماس العطف، لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم، وقد زودت الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل...

أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص

الإمضاء : من خادمكم المطيع

جورج الثاني..

جواب الخليفة الأندلسي هشام الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم...

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه سيد المرسلين وبعد:

إلى ملك انكلترا وايكوسيا واسكندنافيا الأجلّ...

اطلعت على التماسكم، فوافقت على طلبكم بعد استشارة من يعنيهم الأمر من أرباب الشأن، وعليه نعلمكم أنه سوف ينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين، دلالة على مودتنا لشخصكم الملكي.

أما هديتكم فقد تلقّيتها بسرور زائد، وبالمقابل أبعث إليكم بغالي الطنافس الأندلسية، وهي من صنع أبنائنا، هدية لحضرتكم، وفيها المغزى الكافي للتدليل على التفاتتنا ومحبتنا، والسلام.

خليفة رسول الله في ديار الأندلس

هشام الثالث

المراجع: ذكرت هذه الرسائل في العديد من المراجع التاريخية العربية والإنكليزية والألمانية والفرنسية منها:

كتاب «العرب عنصر السيادة في القرون الوسطى» لمؤلفه المؤرخ الإنكليزي السير جون دوانبورت

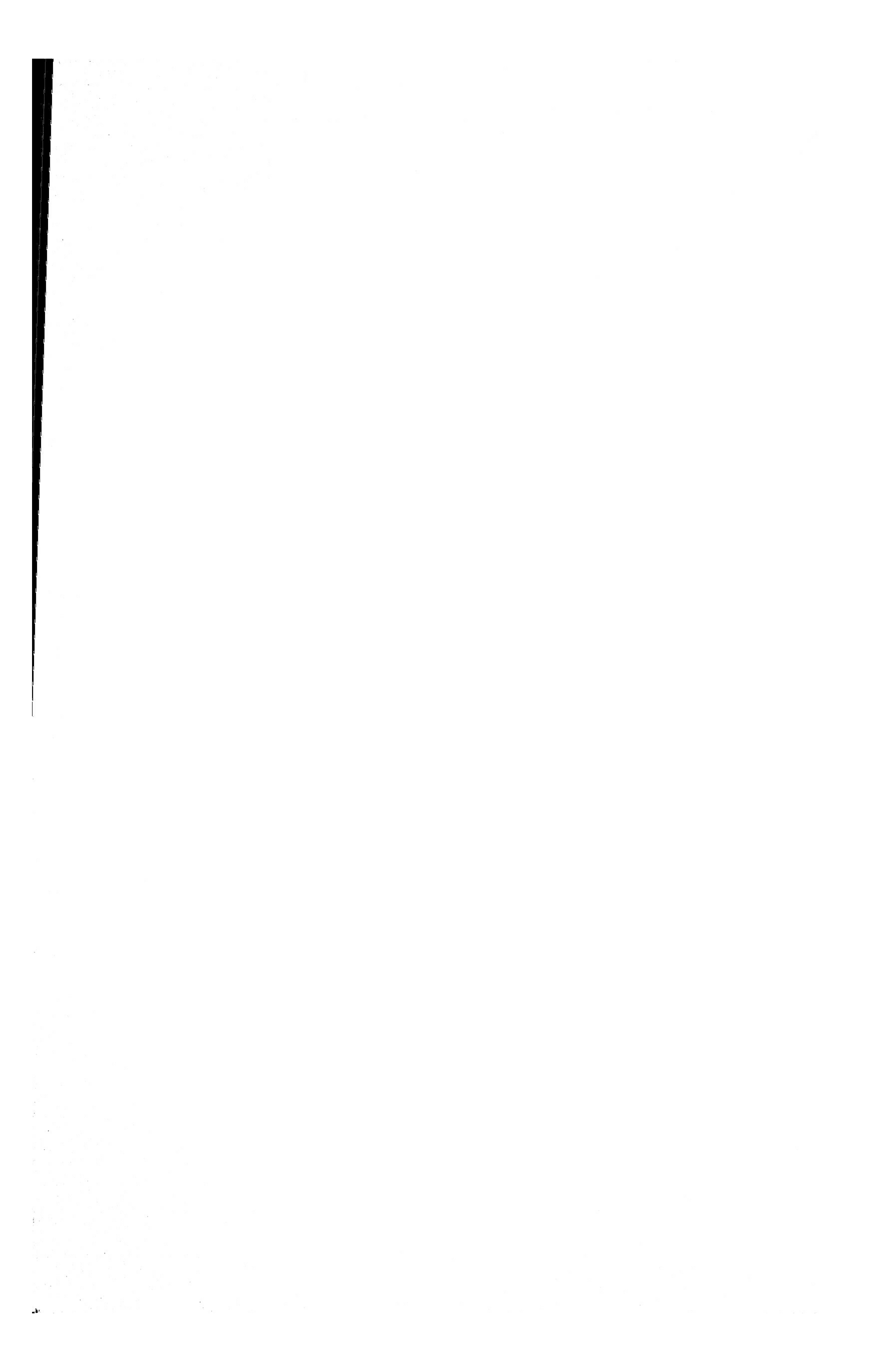
www.al-moharere.net/moh192/nasr_shemall 192.htm

كما أوردها كل من المؤرخين (Sprengasteinn) و(Christer Samuelsson) في مقالات لهما...

Muslim Welfare House trust:
www.mwht.org.uk/articles/king_of_Engiand.htmi
Skalman.nu.forum: http//forum.skalman.nu

وهناك العديد من الموسوعات التاريخية التي لا مجال لذكرها خشية الإطالة، وإنما هدفنا أن نعلم حال أجدادنا الذين جسدوا الآية الكريمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فأعزهم الله، والآن جاء دورنا.

❊ ❊ ❊



الفرق بين الحضارة الإسلامية العظيمة والحضارة الغربية من حيث الأمانة

عرفنا فيما سبق وبشهادة مؤرخي الغرب أنفسهم أن الحضارة الإسلامية العظيمة كانت هي الأساس للحضارة المادية المعاصرة، وأن العرب حينما كانوا في ذروة الحضارة، وكانت شوارعهم كقصورهم في مدنهم، كانت أوروبا تعيش في ظلمات بعضها فوق بعض ما سمعت بالحضارة بعد، علاوة عن أن تعيش فيها، وأن السعيد من أبنائها من كانت تتاح له الفرصة ليتصل بالبلاد الإسلامية، ويطلع على الحضارات المثالية العظمى التي كان يتقلب أبناء العالم الإسلامي في نعيمها.

وعرفنا أيضاً وبشهادة مؤرخي الغرب أن العرب هم الذين مدنوا أوروبا، ونقلوا إليها الحضارة، إلا أن الأحقاد الدفينة ـ كما قال المؤرخون الغربيون المنصفون ـ هي التي جعلت الحضارة الإسلامية في طي النسيان، فبعد أن نقل الغربيون الحضارة الإسلامية إلى ديارهم، وبدأوا السير في طريقها؛ تنكروا لأساتذتهم الذين علموهم، بل طمسوا ذكرهم عندما صارت القوة في أيديهم، ورموهم بكل ما

تشمئز منه النفس المتحضرة، زوراً، وبهتاناً، وتغييراً لحقائق التاريخ والحياة، ولكي لا يعلم أبناؤهم أن الأمة الإسلامية هي التي علمتهم وحضرتهم، كما قاله أيضاً مؤرخوهم المنصفون منهم، لا كما ندعيه نحن عليهم.

استفادة المسلمين من الأمم السابقة:

فعرفنا أن الأمة الإسلامية بدأت حضارتها العلمية بترجمة كتب الأمم السابقة واستفادت من حضارتها، فحفظت للبشرية الكنوز العلمية التي كانت قبلها، ولولاها لضاعت هذه الكنوز.

تصحيح المسلمين لما كان مبدأ الخطأ عند الحضارات القيمة:

وعرفنا ثانياً: أن الحضارة الإسلامية نظرت في تلك الكنوز العلمية فأقرت ما كان منها صواباً، وبينت ما كان منها خطأ ثم صححته، وسارت في طريق الارتقاء في تلك العلوم حتى وصلت بها إلى أوجها.

ما أبدعه المسلمون في حضارتهم:

وثالثاً: لم يقتصر دور حضارتنا على الترجمة، والتصحيح، والارتقاء بالعلوم السابقة، وإنما تجاوزه إلى الاختراع والاكتشاف، فاخترعت أمتنا العديد من العلوم كعلم الكيمياء، والجبر، والمثلثات، والميكانيكا، والتفاضل والتكامل، والهندسة الفراغية.

وغير ذلك من العلوم الكثيرة التي لا تخفى على أي دارس لتاريخ العلوم في العالم، وهم الذين اكتشفوا البارود.

والدورة الدموية.

والأوزان النوعية للأجسام.

وأن الشعاع يسير بخط منحن لا خط مستقيم.

وأن الإبصار يكون بشعاع منطلق من الجسم إلى العين، لا من العين إلى الجسم كما يقوله خطأ من قبلهم.

وأن الصوت ينتج عن حركة الجسم واهتزازه.

وأن ضوء الشمس مثلاً يتحلل إلى ألوان الطيف السبعة، وأن هذه الألوان إذا كانت على قرص يدور بسرعة فإنها تصير بيضاء في النظر.

وارتقوا بعلم الفلك حتى وصلوا به إلى الذروة، وألفوا فيه آلاف المجلدات.

وقاسوا أبعاد الكواكب، وعرفوا سرعتها وخط سيرها.

واخترعوا لهذا الغرض أعظم آلات الرصد التي مازالت تستعمل إلى اليوم في جميع أنحاء العالم، ولكن بعد أن غير اسمها، وتُنُكِّرَ لمخترعيها.

وهم الذين أثبتوا - خلافاً للفيثاغورثية - أن الشمس تجري مع مجموعتها ضمن مدار المجرة.

وعرفوا كروية الأرض، بل قاسوا محيطها قبل اثني عشر قرناً، أيام الخليفة المأمون، والمدهش العجيب أن أقيستهم التي توصلوا إليها بوسائلهم البدائية، إذا ما قيست بالوسائل المعاصرة، هي نفس الأقيسة التي توصل إليها الإنسان المعاصر بوسائله الخيالية، على ما سنذكره في الصفحات القادمة بالتفصيل إن شاء الله.

إلى جانب الآلاف من المكتشفات في جميع جوانب الكون والحياة، والتي قامت عليها حضارتهم، وكانت أساس الحضارة المادية المعاصرة، والتي أسهمت أعظم إسهام في ارتقائها.

الأمانة العلمية في حضارتنا الإسلامية:

وأضيف إلى هذا أمراً مهماً في تاريخ العلوم، وهو أن أمتنا الإسلامية العظيمة عندما أخذت علوم المتقدمين وترجمتها، وتعلمت منها، لم تتنكر لأصحابها، بل

ذكرتهم بالتبجيل والتكريم، ونسبت إليهم كتبهم وعلومهم ومعارفهم، ولم تغمطهم حقهم، لأننا نحن المسلمين نعتبر هذا خيانة، والخيانة عندنا حرام في أي مجال من المجالات، والأمانة التي أدبنا بها الإسلام كانت شعار حضارتنا التي نتحدث عنها، فلم يحدث أن ترجم إنسان كتاباً من كتب الأقدمين ونسبه لنفسه زوراً وبهتاناً، وإنما كان يفخر بأنه ينسب الكتاب لصاحبه، وأنه ترجمه وتعلم منه.

ولكنه إن وجد فيه خطأ علمياً كتب بعد ذلك كتاباً آخر يبين فيه هذا الخطأ ويذكر صوابه.

فقدان الأمانة عند كثير من الغربيين:

وهل كان الغرب هكذا حينما نهب ثرواتنا العلمية، وملأ خزائن مكتباته بمئات الآلاف منها..؟

الجواب المخزي الذي يستحي منه من يعرف الحياء: لا...

فقد سرق الكثير ممن عاش عشرات السنين في عرش المخترعين أو المكتشفين، تحيط به هالات التبجيل والتكريم - سرق الاكتشاف أو الاختراع من كتب حضارتنا، واختراع أو اكتشاف عظماء أمتنا، ونسبه إلى نفسه، إلى أن أتاه قدر الله بالمنصفين من المؤرخين للعلوم

الغربيين، من أبناء جلدته ليفضح سرقته، والزور الذي يعيش فيه، ويرجعَ الحق إلى أصحابه، على ما سيأتي ذكره إن شاء الله.

وإليكم بعض الأمثلة الدالة على هذه الحقيقة الفارقة بين حضارتنا وحضارتهم.

لقد استعمر الغرب معظم بقاع العالم الإسلامي إن لم أقل كلها. وعمل أثناء استعماره لها ما يُطْرق منه تاريخ الإنسانية خجلاً في كل جانب من جوانب الشر والطغيان، وزاد على ذلك أن سرق ثروات الأمم التي استعمرها، بما في ذلك الثروة العلمية، فنقلوا مئات الآلاف من الكتب التي كانت عنوان حضارتنا، نقلوها إلى ديارهم، وتعلموا العربية، فدرسوا تلك الكتب.

ولم يقف الأمر عند هذا، إذاً لهان، وإنما تعداه إلى أنه صار يدعي كثير من مشاهير الغرب، الكثير من القوانين والنظريات العلمية، صار يدعيها لنفسه.

وليس هذا فقط، بل صار يقذف الأمة التي سرق ثروتها العلمية بالجهل والجمود.

الغربيين، من أبناء جلدته ليفضح سرقته، والزور الذي يعيش فيه، ويرجعَ الحق إلى أصحابه، على ما سيأتي ذكره إن شاء الله.

وإليكم بعض الأمثلة الدالة على هذه الحقيقة الفارقة بين حضارتنا وحضارتهم.

لقد استعمر الغرب معظم بقاع العالم الإسلامي إن لم أقل كلها. وعمل أثناء استعماره لها ما يُطْرق منه تاريخ الإنسانية خجلاً في كل جانب من جوانب الشر والطغيان، وزاد على ذلك أن سرق ثروات الأمم التي استعمرها، بما في ذلك الثروة العلمية، فنقلوا مئات الآلاف من الكتب التي كانت عنوان حضارتنا، نقلوها إلى ديارهم، وتعلموا العربية، فدرسوا تلك الكتب.

ولم يقف الأمر عند هذا، إذاً لهان، وإنما تعداه إلى أنه صار يدعي كثير من مشاهير الغرب، الكثير من القوانين والنظريات العلمية، صار يدعيها لنفسه.

وليس هذا فقط، بل صار يقذف الأمة التي سرق ثروتها العلمية بالجهل والجمود.

دعوى أن الحضارة الإسلامية كانت نظرية لا تجريبية:

فلطالما سمعنا من بعض أساتذتنا ونحن صغار في المدارس الابتدائية والمتوسطة، وغيرها من مراحل الدراسة، لطالما سمعنا من بعض أساتذتنا أن الفرق بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، أن الحضارة الإسلامية كانت قائمة على النظر، بينما قامت الحضارة الغربية على التجربة، وبهذا فاقت الحضارة العلمية الغربية الحضارة العلمية الإسلامية.

دعوى أن باكون هو مؤسس المنهج التجريبي:

ولطالما سمعنا أن روجر باكون Rager Bacon هو مؤسس المنهج العلمي الذي يقوم على التجربة.

وهذا الذي كنا نسمعه من أساتذتنا في المدارس كان هو الشائع في الأوساط العلمية في الغرب، ومنهم تلقفه الذين جهلوا تاريخ أمتهم الإسلامية من الأساتذة الذين لم تكن عندهم الثقافة الكافية لرد مثل هذه الأباطيل.

ولكن هل كان الأمر كذلك؟

سأدع الجواب لمؤرخي الغرب الذين كشفوا الحقيقة، وأظهروا زيف الدعوى.

رد المؤرخين الغربيين لهذا الدعويين:

يقول مؤرخ المنطق برانتل c.Prantl : إن روجيه باكون أخذ كل النتائج المنسوبة إليه في العلوم التطبيقية من العرب اهـ.

مع أن هذا المؤرخ لم يكن مختصاً بالعلوم الإسلامية، ولكنه كان قد اطلع على دعوى باطلة، وأراد أن يكشف اللثام عن الحق فيها.

ويقول بريفولت: إن روجر باكون درس اللغة العربية والعلوم العربية في مدرسة اكسفورد، على خلفاء المعلمين العرب في الأندلس.

وليس لروجر باكون، ولا لسميه الذي جاء بعده فرانسيس بيكون الحقُ في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي، فلم يكون بيكون إلا رسولاً من رسل العلم، ومنهج الإسلام إلى أوروبا المسيحية، وهو لم يَمَلَّ قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العرب، وعلوم العرب، هو الطريقة الوحيدة لمعرفة الحق.

والمناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي هي طرق من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوروبية.

وقد كان منهج العرب التجريبي في عصر باكون قد انتشر انتشاراً واسعاً وانكب الناس على تحصيله في ربوع أوروبا اهـ كلام بريفولت.

وقد استطاع بعض المتخصصين أمثال فيدمان wiedemahn وشرام schramm أن يوضحوا بجلاء كبير مكانة العلماء المسلمين في تأسيس قانون التجربة والنظرية، وأثَرَهم الواضح في باكون، وليونارد دافنشي وسواهم، ممن اشتهر بمنهجه التجريبي.

كما أوضحوا بما لا يقبل الجدل أن مهمة العلماء المسلمين، لم تعتمد على التجربة وحدها، وإنما كانوا مهتمين بمسألة أن التجربة يجب أن تسبقها النظرية، وأنهم عملوا التجربة بهذا المعنى؛ واسطة تستعمل باستمرار أثناء البحث.

ويقول فيديمان بكل صراحة: إن العرب كانوا سباقين إلى هذا الموضوع، بل إن ما توصل إليه روجر باكون أقل بكثير مما كان موجوداً عند علما العرب القدماء.

كما أن فيديمان وجه النظر إلى طابع آخر مهم لدى العلماء المسلمين في طريقة بحثهم وعرضهم فقال: تصادفنا نتائج البحث عند الإغريق في صيغتها النهائية الكلاسيكية، فلا نتمكن إلا في أحوال استثنائية من تتبع نشأتها، ولكن

الحالة عند العرب تخالف ذلك تماماً، إن العرب يوضحون تطور العمل الذي يقومون به خطوة بعد خطوة، كما يفعل بعض الباحثين في يومنا هذا.

قال: ولا يسعنا تجاه هذا التوضيح إلا تصور ما تفيض به نفوسهم اطمئناناً وسروراً من خطوات عملهم، وبلوغهم النجاح في أبحاثهم، بكمال أدواتهم التي استعانوا بها، وبذوقهم الفني في أعمالهم اهـ.

وقال درابر الأستاذ بجامعة نيويورك في كتابه «المنازعة بين العلم والدين» قال في سياق كلامه على العلوم عند العرب ـ مما قدمنا بعضه في الصفحات السابقة ـ قال: وأما في العلوم فقد كان تفوقهم فيها ناشئاً عن الأسلوب الذي توخوه في المباحث. فإنهم تحققوا أن الأسلوب العقلي النظري لا يؤدي إلى التقدم، وأن الأمل في وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقوداً بمشاهدة الحوادث ذاتها، ومن هذا كان شعارهم في أبحاثهم الأسلوب التجريبي، والدستور العملي الحسي اهـ.

هذه شهادة مؤرخي العلوم عند الغربيين تدحض باطل أدعياء العلم من أبناء جلدتهم، وتبطل دعاويهم، وتثبت للعالم بأن المنهج التجريبي إنما هو وليد الحضارة الإسلامية، ورائد أبحاثها وأعمالها العلمية، وأن الغربيين

وعلى رأسهم باكون، ما كانوا إلا تلامذة لهذه الحضارة، تعلموها، ثم حملوها لقومهم، ثم ادعوها لأنفسهم، ثم تنكروا لبناتها، ثم همزوهم ولمزوهم، وقذفوهم بما فاضت به أخلاقهم، من الأنانية، ونكران الجميل.

وهل كان مثل هذا المنهج في سرقة كتب المسلمين وادعائها مقصوراً على باكون؟

الجواب وبكل تأكيد لا.

بل صار هذا منهجاً للكثيرين من مفكري الغرب يتسابقون إلى ترجمة كتب العرب، وانتحالها، مع إشاعة ما تفيض به صدورهم من حقد على العرب يُغْريه الخوف من أن تعرف أممهم ثقافة العرب، وتعرف أنهم ليسوا سوى لصوص للحضارة العربية.

سرقة لولوس لكتب الكيمياء العربية وفضيحته:

إلا أن هذا لم ينفعهم، لأنه وإن كانت للباطلة جولة، فللحق جولات، فهاهو رايموندس لولوس Raymundus Lullus بذل حياته وكل جهوده في مقاومة كل شيء عربي، وتشويه كل ثقافة عربية، وألف عدداً كبيراً من كتب الكيمياء، طار فيها صيته بين أبناء قومه، وكانت مؤلفاته

الكيماوية شاهداً على عبقريته، وربما استعملها دليلاً على بطلان وجمود الثقافة الإسلامية، إلى أن أتاه قدر الله، لا بانتصار المسلمين لثقافتهم، بل باكتشاف المؤرخين الغربيين أن معظم ما ألفه لولوس كان كتباً عربية، ترجمها، وادعاها لنفسه، ومن ثم عرف أبناء قومه لماذا كان يرتفع صوته في تشويه سمعة العرب وثقافتهم العظيمة..؟!

وفي خضم التيارات المعادية للثقافة العربية الإسلامية جمح جنون الحقد والأنانية ببعض الناس، إلى ارتكاب أمور يصعب على عقل كل عاقل تصورها، فأراد أن يطير بغير جناح، ويجفف البحر بنزح الدلاء، وقام وهو قزم صغير إلى التصدي لعملاق كبير، وربما بهر الإنسان لبعض الوقت الناس بوسائل مكره وخداعه، لكنه سرعان ما تعرف الحقيقة، ويسقط ضحية بهرجته وخداعه.

سرقة سرفت لكتب الطب الإسلامية وادعائها لنفسه:

وهاهو مايكل سرفت Servet يطير صيته بين أبناء قومه على أنه من عباقرة الطب المكتشفين للعديد من الأمور الطبية الخطيرة، ويقف إبداعه عند حدود الكتاب الذي ألفه في هذا الصدد، وضمنه عبقريته، وخلاصة تجاربه واكتشافاته.

فضيحة سرفت:

ويشاء الله أن يبعث أندرياس الباغوس، ليُزْهق به باطلاً، ويحيي حقاً، وكان ألباغوس هذا محباً للعلم، وكانت ساحة بلاده خاوية من المراكز العلمية التي تشبع طموحه، فاتجه نظره إلى مراكز الحضارة العلمية التي سطع نورها في كل بقاع الأرض، وهي المراكز العلمية في ديار المسلمين، فولى وجهه قبل المشرق، ويمم دمشق، فأقام بها ثلاثين عاماً، ملأت كيانه بعظمة الثقافة العربية الإسلامية، وصيرته طبيباً يمارس الطب بين أطباء العرب، في دمشق.

ولابد للمغترب في نهاية اغترابه من العودة إلى وطنه، فغادر دمشق، بعد أن تملأ من الثقافة العربية الإسلامية، وعاد إلى بادوا Padua سنة ١٥١٥م وبدأ بنشر ما حمله معه من العلوم والمعارف الإسلامية.

فترجم كثيراً من كتب الطب التي ألفها المسلمون، والتي كانت إلى ذلك الوقت أهم المراجع الطبية في العالم، ومن جملة ما ترجمه من الكتب كتاب ابن النفيس المشهور في الأوساط الطبية.

ولم تكن المفاجأة أن يقرأ الناس كتاب ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية بلغتهم، ولاشك أن هذا كان شيئاً محبباً إليهم، طال انتظارهم له، وتشوقهم إليه.

ولكن المفاجأة كانت أنهم وجدوا الكتاب الذي ألفه سرفت Servet، وطار به صيته بينهم، لم يكن سوى كتاب ابن النفيس، العالم المسلم العظيم، الذي ملأ صيته الدنيا، ترجمه سرفت وادعاه لنفسه، ليصنع من دميته تمثالاً عظيماً، لا ليدل على عظمته، ويخلد في الناس تاريخه، لكنه ليخلد به معنى الأنانية الطاغية، والبتهان الفاضح، والزور المهين، عندما ثبت للناس أنه لم يكن إلا كاذباً على الحق، ومزوراً للتاريخ، ومدعياً لنفسه عظمة غيره، ولصاً بدون حياء...!!

وإزاء هذه الظاهرة المخزية في تاريخ العلوم جند كثير من المستشرقين نفسه أمام حقيقة لابد من إظهارها، فصرف نظره، وحول جهده إلى تتبع أبناء قومه، لكشف ما يدعونه من أباطيل، في انتحال كتب المسلمين..

كما جند كثير منهم كل جهوده لإعادة الحق إلى نصابه في تاريخ العلوم، ولإظهار مكانة الحضارة الإسلامية فيها، من أمثال ياكوب رايسكه، وكورت سبرنجل، وجوته، وألكسندر فون هومبولد.

إلى جانب الكثرة الكاثرة التي ركبت رأسها، وسارت في طريق العداء العلني السافر للثقافة الإسلامية، غاضة الطرف عن كل المخازي التي سمعت بها أو رأتها في المزيفين من أبناء قومها.

سرقات بن كرسون وفضحها:

لقد اشتهر بن كرسون Gerson في قومه بأنه فلكي، ولاشك أنه كان فلكياً، تعلم الفلك على يد أساتذته العرب، وهذا شيء طبيعي، ولا ضير فيه.

وما لبث نجمه أن سطع بين الفلكيين الغربيين عندما وجه نقداً حاداً لبطليموس، الذي بدأت مدرسته تسود منذ أوائل القرن الرابع عشر الميلادي في باريس، واكسفورد، وأخذ الناس هناك يقتنعون بأرصاد الفلك وحساباته، لكنهم لم يكن في مقدورهم أن يأتوا بشيء جديد، لأنهم لم يكونوا بعد قد هضموا كل ما أخذوه من أساتذتهم العرب، فلما وجه بن كرسون نقده إلى بطليموس، وأتى بشيء جديد في مضمار الفلك، فتن به قومه، إذ صار فيهم المبدع في هذا الفن.

وتمطى بن كرسون ثانية، فاكتشف الحجرة المظلمة في البصريات، واستخدمها في أرصاد القمر، واثبت له تاريخ العلوم الغربي هذا الاكتشاف، مما دفعه إلى اكتشاف جديد، فسجل له تاريخ العلوم الغربي أنه اكتشف المثلثات الكروية. وكل هذه الاكتشافات ترتفع بدرجته عند قومه، وتزيد نجمه الساطع فيهم بريقاً ولمعاناً.

ثم ارتقى بن كرسون درجة رابعة في سلم المجد والشهرة في الاكتشاف والإبداع، فاكتشف الآلة الرصدية التي اشتهرت في العالم اللاتيني باسم «عصا يعقوب».

وجن به قومه، وتاريخ العلوم، حينما اكتشف الكسر العشري.

ولاشك أن إنساناً في عصره وزمانه، والناس قد فتحوا أعينهم على نور العلم، الذي كان يتدفق عليهم من الشرق الإسلامي، بعد قرون طويلة من ظلمات الجهل الذي ران على قلوبهم، لا شك أنهم حينما يرون رجلاً من أبناء جلدتهم يصل إلى هذا المستوى، من العلم والمعرفة والإبداع، لاشك أنهم سيفتنون بعبقريته، ويتواضعون أمام علمه وإبداعه.

ولكن بريق الباطل سرعان ما يخبو، وليت قومه الذين جنوا بعبقريته، وطافوا بوثن علمه، وشمخوا برؤوسهم باكتشافاته، ليتهم يبعثون من جديد ليروا أن أسطورتهم العلمية لم تكن إلا ضرباً من الخداع، والكذب الرخيص، واللصوصية والافتراء.

فقد اكتشف العلماء الغربيون الذين جاءوا من بعده أن نقده الذي وجهه إلى بطليموس، والذي كان في عصره كالمعجزة، لأن الناس لم يكونوا قادرين في ذلك الوقت في

بيئتهم على توجيه مثل هذا النقد، اكتشفوا أن هذا النقد لم يكن من بن كرسون، وإنما كان من الفلكي المسلم جابر بن أفلح، الذي تعلمه بن كرسون من أساتذته العرب، ثم ادعاه في قومه لنفسه.

وما لبث العلماء أن اكتشفوا ثانية أن الحجرة المظلمة في البصريات، والتي ادعى بن كرسون أنه اكتشفها واستعملها في أرصاد القمر، إنما هي من اكتشاف الحسن بن الهيثم الذي يلقبه علماء الغرب بـ «أبي البصريات في العالم» والذي سبق بن كرسون بقرون طويلة، وإنما سرقها بن كرسون من أساتذته وادعاها لنفسه.

كما اكتشف علماء الغرب أنفسهم أن المثلثات الكروية التي ادعاها بن كرسون إنما هي لعلماء الرياضيات من المسلمين، تظاهرت عليها جهود العديد منهم، كالخجندي، وأبي الوفاء البوذجاني، وأبي نصر بن عراق.

وأما آلة الرصد التي اشتهرت في العالم اللاتيني بعصا يعقوب، والتي طار بها صيت بن كرسون، فقد أثبت العالِمُ الغربي «وايدمان» أنها ليست من اكتشاف بن كرسون، وإنما هي لعبقري العلوم المسلم ابن سينا، وإنما ادعاها بن كرسون لنفسه في أمته الأمية آنذاك، والتي كانت عاجزة عن التمييز

بين أدنى درجات الحق والباطل، فخدعت بشعوذته، وصدقت أباطيله.

والأعجب من هذا أنه بعد موت بن كرسون وقبل معرفة الحقيقة ادعى عالم ألماني آخر عاش في القرن الخامس عشر وهو ريجيومونتانوس ادعى أنه مكتشف هذه الآلة، وناقش الناس ادعاءه، وهل هو مكتشفها الحقيقي، أو أنه انتحلها من بن كرسون؟ إلى أن أثبت وايدمان أن كلا الرجلين قد سرقها من ابن سينا، وادعاها.

ثم ما لبث العلماء أن عرفوا أن ما ادعاه بن كرسون من اكتشاف الكسر العشري إنما هو من زوره وبهتانه، وأن مكتشف الكسر العشري إنما هو العالم الرياضي المسلم الإقليدي، المتوفى في القرن الثامن للميلاد.

أترى ماذا يقول المفتونون بأدعياء الحضارة بعد أن أثبت علماء الغرب أنفسهم أن أولئك العظماء الذين عاشوا طيلة حياتهم في أبراج الشهرة الموهومة، ما كانوا إلا كاذبين، مخادعين، نهلوا من معين أساتذتهم العرب العلوم والفنون، وبدلاً من أن يعيشوا على عهد الوفاء لهم، إذ علموهم وثقفوهم، انقلبوا إلى أعداء مجحفين، شوهوا سمعة أساتذتهم في قومهم، ليسرقوا اكتشافاتهم وإبداعاتهم التي لم يضن أساتذتهم يوماً ما بها عليهم.

الجواب معروف لكل عالم بطبائع البشر، ونذالة الخيانة، وعاقبة الكذب.

تجاهل بعض المؤرخين لكل هذه الحقائق رغم مصداقيتها:

وهل كان هذا في جانب كتاب خفي على أمتهم الأمية في ذلك الوقت، فادعوه لأنفسهم، أم أنه كان في غير هذا، مما لا يخفى على ذي بصيرة أو بصر؟

سندع الجواب للتاريخ الذي دونه مؤرخوهم يتكلم:

لقد أعمت الأحقاد الدفينة على الإسلام والأمة الإسلامية بصر أصحابها، لا عن رؤية السُّها، بل عن رؤية الشمس في رابعة النهار.

فقد ذكرت في الفقرات السابقة ـ وعلى لسان مؤرخي الغرب ـ أنه في الوقت الذي كان ملوك أوروبا لا يعرفون القراءة والكتابة، كانت المدن الإسلامية تعج بالعلماء والمفكرين، والأدباء والمبدعين، وكانت الجامعات منتشرة في كل مدينة من مدن العالم الإسلامي، وكانت المدن الإسلامية الكبيرة مراكز الحضارة، والثقافة، والفنون،